الباب الأول

رسول الله صلى الله عليه وسلم

{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]

obeikandl.com

في هذا الباب فصلان:

الأول: في مكانة رسول الله عليه الصلاة والسلام وآله بمكة، وموقعها الديني من جزيرة العرب، والمامة عجلى بها في الجاهلية، وإعداد السماء لرسول الله في صباه، وإيفاعه وشبابه، واليتم المضاعف، ورعي الغنم لقومه، والعمل بالتجارة، ثم زواجه من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وإنجابهما، واختصاص أهل مكة إياه بوصف الأمين، وإجماع قبائل قريش عليه ليرفع الحجر الأسود بيديه في بناء الكعبة فيقيم بعد إبراهيم عليه السلام إحدى قواعد البيت الحرام.

الثاني: في بعثته عليه الصلاة والسلام بعدئذ بأعوام ودعوته للدين كما رتبتها السماء بتنسيق تتأدى فيه كل مرحلة إلى ما بعدها، من تحالف قريش عليه وصحبه، وقتل بعضهم وإيذاء سائرهم والائتمار الدءوب لقتله، ورباطة جأشه وصدعه بالدعوة، إلى أمره صحبه بالهجرة إلى الحبشة، ومن حصار قريش لبني عبد المطلب في الشعب سنين ثلاثة إلى وفاة خديجة وعمه أبي طالب، ومن إكرام الله إياه بالإسراء، إلى خروجه إلى القبائل يعرض عليها الإسلام، ومن بيعة العقبة إلى تنفيذ أمر الله بالهجرة من مكة إلى المدينة ليقيم دولة الإسلام.

obeikandl.com

الفصل الأول

الأمين

"بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا راعي غنم بأجياد".

﴿حديث شريف﴾

أبو الأنبياء:

رفع إبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل عليهما السلام قواعد البيت الحرام بمكة[1] ثم وليت أمر البيت قبيلة جرهم بعد إذ أصهر إليهم إسماعيل. ومضى على جرهم نحو ألف عام حتى أجلتهم عن مكانتهم قبيلة خزاعة من قبائل اليمن في القرن الميلادي الثالث. ومضى عليها نحو قرنين فانتزع زعامتها حفدة فهر المسمى قريشا في حياة قصي بن كلاب، إذ أجمعت عليه القبائل من نسل قريش فسمي (المجمع) حوالي سنة ٤٠٠ للميلاد.

واجتمعت له ست وظائف: حجابة الكعبة وسقاية الحاج إليها ورفادتهم ودار الندوة وحمل اللواء والقيادة، ثم أضاف بنوه وظائف أخرى لقبائلهم. وهي الحكم ف يالخصومات ورعاية الأموال الموقوفة على الآلهة والأعنة والقبة والأشنان (الديات) والسفارة والشورى والأيسار والعمارة فهذه تسع وظائف أخرى لأبناء قصي تقاسموها بزعامة عبد مناف، وقد رزق بنين أربعة هاشما، وعبد شمس والمطلب، ونوفلا وهو أخ لأب.

---

(١) وأضافه الله تعالى لنفسه فقال (بيتي)، وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الصلاة فيه تعادل مائة ألف صلاة فيما عداه. ومائة صلاة في مسجد النبي". وسمى الله مكة في القرآن (أم القرى) وأقسم بهذا البلد: وسماه البلد الأمين.

وأصحاب الديانات الأخرى يقولون: "إن إبراهيم عليه السلام عاش في القرن العشرين قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام وكذلك ولده إسماعيل من زوجته المصرية (هاجر)، أما ولده إسحق فمن زوجته (سارة)، وهو أبو يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل وإليه ينسب بنو إسرائيل".

obeikandi.com

أما هاشم فأبو عبد المطلب جد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.
فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب. وآباء كلاب مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن "فهر" (قريش) الجد العاشر لرسول الله ﷺ واثنتى عشرة قبيلة[٢] تناسلت وتصاهرت أنسالها، فألفت المجتمع الذي شرفه الله بميلاد رسوله بين ظهرانيه. ونسبهم جميعا ينتهي إلى عدنان بجدود عشرة معروفين ثم يختلف المؤرخون في أسماء آبائهم حتى إسماعيل عليه السلام.

وإلى إبراهيم تنسب العرب المستعربة تمييزا لها من العرب العاربة وهم بنو قحطان سكان اليمن الذين لم تختلط أنسابهم بالأعاجم والمستعربة بنو عدنان[٣].

وامتاز هاشم بمآثر في قومه منها أنه حالف خزاعة على الانتصار للعدل، وأنه حرم على نفسه الخمر، وأنه استأمن قيصر الروم للقوافل بتجارات قومه إلى الشام وحذا حذوه أخوه (عبد شمس) فاستأمن "النجاشي" لتجاراتهم إلى الجنوب وأخوهما "المطلب" فاستأمن لها ملوك اليمن واستأمن أخوهم لأبيهم "نوفل" "كسرى" للتجارة إلى فارس، لذلك سمي الإخوة الأربعة "المجيزين".
وتشاء السماء أن يموت ثلاثة من المجيزين في الطريق. هاشم في غزة، ونوفل في طريق العراق والمطلب في طريق اليمن. أما عبد شمس فمات بمكة.

وامتاز هاشم من بين المجيزين بأنه كان جوادا يهشم الثريد بمكة ليطعم الناس، فيطهر ذاته وماله، وأنه دعا إلى أن يكفل الأغنياء الفقراء من العرب ليحموا رحلات القوافل.

بهذا مدت قريش بالأسباب إلى الحبشة عن طريق اليمن وإلى الروم عن طريق عرب الشام، الذين وصلوهم ببيزنطة. وإلى فارس عن طريق قبائل عربية أمراؤها مناذرة الحيرة. كما ساد في

---

(٢) بنو عبد مناف بن قصي بن كلاب، بنو زهرة بن كلاب، بنو عبد الدار بن قصي، بنو عبد العزي بن قصي، بنو مخزوم، بنو تيم بن مرة، بنو عدي بن كعب، بنو عامر، بنو لؤي، بنو تيم بن غالب، بنو الحارث بن فهر. ومن هؤلاء من يسمون قريش البطاح إذ يقيمون في بطاح مكة. ومن عداهم يسمون قريش الظواهر يقيمون في ظاهر مكة.

(٣) وفي نسب الرجال وراء عدنان أو قحطان قول عروة بن الزبير (ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء عدنان أو قحطان إلا تخرصا) – ويمكن مع التقريب التقرير بتواريخ الميلاد التالية: قي ولد سنة ٤٠٠ ميلادية وعبد مناف سنة ٤٣٠، وهاشم سنة ٤٦٤، وعبد المطلب سنة ٤٩٧، وعبد الله سنة ٥٤٥، ومحمد رسول الله عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧٠، أما هجرته فكانت بيقين سنة ٦٢٢.

اليمن ملوك كندة، ولما انتصر بنو بكر بن وائل وبنو شيبان على الفرس في موقعة ذي قار سنة ٦١١م،كان يوما له ما بعده كما سنرى.

وكانت لإمبراطور الروم وهو زعيم المسيحية "صلات رسمية" مع كندة في اليمن من الثلث الأول للقرن السادس للميلاد، كما كان للحبشة – وهي دولة مسيحية – نفوذها في اليمن، ولهذا وجدنا "أبرهة" في منتصف القرن حاكما حبشيا على اليمن، وتجاوز نفوذ الحبشة باليمن إلى مواقع في الطريق بين مكة ومدينة الرياض الآن. أما وسط جزيرة العرب فيموج بقبائل تتنازع أو تتوادع، إلا قريشا في "مكة"، تحرس البيت العتيق الذي يحج الجميع إليه ويعظمونه.

اتخذ أبناء قصي مساكنهم حول البيت الحرام يحرسونه ويعينون الوافدين للحج إليه، وتوزعوا الوظائف دينية وقضائية وسياسية.

ففي العصر الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت رفادة الحاج وإطعام الفقراء لعبد المطلب(٤) بن هاشم جد النبي، حتى إذا بعث رسول الله كانت الرفادة لعمه أبي طالب والسقاية لعمه العباس، أما جمع الديات فكانت لبني تميم بن مرة يمثلهم "أبو بكر"، وأما السفارة بين قريش وغيرها فكانت لبني عدي يمثلهم "عمر بن الخطاب" فإذا سارت قريش لحرب، أو القوافل لتجارة، فالقيادة لبني عبد شمس وزعيمهم "أبو سفيان".

أما دار الندوة فلبني عبد العزي بن قصي، وحراستها وتجنيد الرجال لمن يتولى الأعنة وخيل الحرب وهو خالد بن الوليد من بني مخزوم، وأما المشورة في المهمات فلبني أسد، وأما مفاتيح الكعبة في البيت الحرام فلبني عبد الدار، كما كانت لبني جمح استخارة الأزلام إذا هم امرؤ بأمر، أما الأموال المحجرة (الموقوفة) على آلهتهم، وهي تشبه بيت المال، فكانت لبني سهم يمثلهم العاص بن وائل (أبو عمرو).

* * *

وذاع شرف بني عبد المطلب منذ اجتاح جزيرة العرب جيش الحبشة تتقدمه فيلة ثلاثة عشر بقيادة أبرهة ليهدم الكعبة لتبقى كنيسة صنعاء وحدها مقصد الحجيج. وبعث أبرهة إلى سيد قريش

---

(٤) وهو يمت بالنسب لكبرى قبائل العرب: أمه من بني النجار من الخزرج كبرى قبائل المدينة. وجدته لأبيه عاتكة بنت مرة السلمية، وسنرى من بني سليم في فتح مكة فيلقا من ألف. وأم عبد مناف حيي بنت جليل الخزاعية. وخزاعة خليفة هاشم وستدخل في حلف رسول الله وسيرتب الله تعالى على نصرته لها نصر الله والفتح.

(عبد المطلب) يبلغه بأنه قدم لأمر خاص بدينه لا للحرب. فسار إليه عبد المطلب. فسأله ما حاجتك؟

قال عبد المطلب: حاجتي أن ترد إلي مائتي بعير أخذها جيشك.

قال أبرهة لقد أعجبتني إذ رأيتك وزهدت فيك إذ قصرت طلبك على إبلك وتركت أمر دينك.

قال عبد المطلب: الإبل إبلي. أما البيت فله رب يحميه.

ورجع بالإبل فأطعمها فقراء مكة، وأمر قومه بالتفرق في جبالها حتى لا يحيط بهم العدو، وأقام بالبيت الحرام يدعو ربه ليحميه. وحبس الله الفيلة فأبت أن تتجه ناحية الكعبة، وفعل الله بالجيش الأفاعيل، فسلط عليه الطير ترميه بحجارة من سجيل فانهزم. وعلا شأن عبد المطلب لأكثر من سبب.

منها مبادرته بإنذار أبرهة وحبس الله الفيلة وانهزام الجيش.

وسمى العرب العام عام الفيل، وأرخوا به، وحفر عبد المطلب بئر زمزم لتبقى على الزمان في جوار الكعبة، ولما وجد في البئر غزالتين من ذهب مدفونتين وأسياخا وأدراعا ضربها في بابها فكانت أول حلية لها.

وإذا وصف قصي بأنه "المجمع" لقبائل قريش فعبد المطلب حقيق بأن يكون "مجمع العرب" على قضية عامة حمى بها الله البيت الحرام الذي يخدمه عبد المطلب. وتتابع بنوه على تكريم البيت ورفادة الحجيج إليه وطعام الفقراء حوله.

ولسوف يخلد الله ذكره إذ تنزل سورة الفيل في العبرة بما فعله الله بأصحاب الفيل.

وأضاف التاريخ مجدا لبني عبد المطلب في (حرب الفجار) بعد عشرين عاما من ميلاد رسول الله، وقد نشبت من جراء تجارة أرسلها ملك الحيرة بالعراق لتباع في أسواق عربية، تنازع على تأمينها في الطريق رجلان من قبيلتي قيس وكنانة. فأرسل الكناني على القيسي من قتله. وهبت قيس للثأر من كنانة حليفة قريش، واحتمت قريش بالبيت الحرام في مكة وانكفت قيس وتوعدتها للعام القادم وصنعت.

وسميت الحرب "فجارا" لانتهاك المحاربين حرمات البيت الحرام بمكة وتصدر المحاربين بنو عبد المطلب أبو طالب والزبير وحمزة والعباس و"محمد" ابن أخيهم عبد الله(٥).

وانضم إليهم بنو عمومتهم (أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) يتقدمهم حرب والد أبي سفيان، وانتهت الحرب بديات يدفعها حرب فرهن ابنه أبا سفيان حتى يؤديها.

وسطع نجم بني عبد المطلب في المكرمات إذ ألوفا مع بني عمهم المطلب، وبني تيم (قوم أبي بكر وطلحة)، وبني زهرة (أخوال محمد) (حلف الفضول) أو "المطيبين" لنصرة المظلومين والمستضعفين بمكة سواء من أهلها أو من غيرهم وللتآسي في المعايش، وكان محمد من حضاره.

قال عنه بعد بعثته صلى الله عليه وسلم "لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به في الإسلام لأجبت".

وكان سبب الحلف جحود العاص بن وائل السهمي ثمن سلعة ابتاعها من رجل من زبيد فاستجار الرجل بقريش فلم تجره.

فهؤلاء بنو هاشم ولجدهم من الفضل في قريش ما يسلمونه، ولابنه عبد المطلب من الفضل ما تسلمه كل العرب، وهؤلاء بنوه لكل جيل منهم أسباب للسيادة ولقومهم الصيت البعيد في الناس كافة.

والناس قبل الإسلام ثلاثة: من أدرك التوحيد ببصيرته مثل زيد بن عمرو بن نفيل من بني عدي (قوم عمر)، وقليلون دخلوا في المسيحية أو اليهودية، أو كانوا يتعبدون على دين إبراهيم،

---

(٥) أعمام محمد – عشرة – والزبير وأبو طالب شقيقان لعبد الله، أمهم من بني مخزوم (قوم خالد) أما أبو لهب فكنية لعمه عبد العزى.

وعماته أربعة شقيقات:توم، أبيه أم حكيم البيضاء، من بناتها أروى أم عثمان بن عفان بن عبد شمس، وعاتكة تزوجت أبا أمية بن المغيرة المخزومي (أخا الوليد أبي خالد) فولدت عبد الله بن أبي أمية وزهيرا وهما أخوان لأم المؤمنين أم سلمة من أبيها. أما برة فتزوجت عبد الأسد بن هلال المخزومي فولدت أبا سلمة وأرضعت النبي صلى الله عليه وسلم معه. وقد تزوج أبو سلمة أم سلمة من أبيها. أما برة فتزوجت عبد الأسد بن هلال المخزومي فولدت أبا سلمة وأرضعت النبي صلى الله عليه وسلم معه. وقد تزوج أبو سلمة أم سلمة. واستشهد. والرابعة أميمة. تزوجت عمير بن وهب ثم تزوجت وولدت عبد الله بن جحش وإخوته – والعمة الخامسة صفية عمته لأب وهي أم الزبير بن العوام بن خويلد.

والجلال السيوطي يرى منهم أبوي الرسول، وزيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل. والفخر الرازي يرى أجداد الرسول كلهم منهم أما سائر الناس فعباد أوثان.

عبادة الأوثان:

في هذه الصحارى التي تعشب حين تسخو عليها السماء بالمطر، أو تضن عليها ولا تمطر فلا تعشب، في بحار من الرمال تموج فيها مئات القبائل وآلاف البطون كلها على الفطرة، ومن رؤسائها حكماء أو جهلاء، تحكمهم شهواتهم أو أعرافهم.

والقتال للغنيمة مألوف، فالرزق نزر والحياة مرهقة في صحراء يجمد بردها الجسد وينضج قيظها الضب. وقوام العيش فيها رعي الغنم أو الإبل وبعض التجارة، والقول فيها وسيلة التخاطب، أما الكتابة فلا يعرفها إلا قلائل في المدن ولم يشتهر فيها في آلاف السنين كاتب واحد. أما الشعراء أو الخطباء فيتعددون.

وليس غريبا أن تغلب الوثنية عليهم إلا رجالات فلتات، وأن تنتقل إليهم من جيرانهم فتمسي الأصنام شركاء للخالق فيما يعبدون، ويصبح لكل قبيلة صنم. ويعبد الرجل أكثر من صنم. ولقد أشار هيرودوت (٤٨٤ ق.م) إلى مكانة هذه الأصنام فيهم قبل ميلاد المسيح بنحو خمسمائة عام، وأصبح البيت الحرام مباءة أصنام، وحيث توجد أصنام فهم يستقسمون عندها بالأزلام، وهي حجارة ثلاثة، يكتب على الأول (الله يأمرني)، وعلى الثاني (الله ينهاني)، وعلى الثالث لا شئ، أو (افعل) و(لا تفعل) و(تربص).

ولها سادن بجوار الصنم، يخرج عليه أي الحجارة، فيتبع المستقسم "المكتوب" عليه.

ولا يغير ما عليه العامة أن ينفرد منهم بعض كامرئ القيس بن حجر إذا استقسم بالأزلام عند "ذي الخلصة" فخرج له القدح الناهي عن الغارة التي يزمعها على بني أسد ثأرا لأبيه حجر، فكسر القداح الثلاثة وصاح بالصنم: لو كان أبوك قتل ما عوقتني. وأغار على بني أسد.

أو عدي بن حاتم الطائي، فهو مثل رفيع من سادات المخضرمين: شهد مالك بن كلثوم الشمجي ينتزع من حرم صنم "الفلس" ناقة ويهدد برمحه سادته، فلما رأى عدي أن مالكا لم يصب بسوء رفض عبادة الصنم واعتنق النصرانية، حتى إذا شهد مجلس رسول الله أسلم. ولما ارتد قومه عن الإسلام – بين المرتدين – أعادهم إلى الدين وامتد به الزمان ليشهد كل ما وعده النبي من نبوءات يتحقق.

لكن أمثال عدي ومن نجله لا يتكررون في مجتمع الجاهلية. فالأصنام كالمؤسسات لكل قبيلة صنم وهيئة "منتفعين" من حجابته. ومن الأصنام أنثى وذكر، العزى وأساف ونائلة تعبدها قريش، وكنانة واللات تعبدها قرش وثقيف، ومناة تعبدها خزاعة ومن الذكور (هبل)، وهو منصوب فوق الكعبة من نحاس لا من حجر، في صورة رجل يذبحون له، ويستقسمون عنده في الحل والترحال والتجارات وهو صنم لقريش أيضا.

وبلغت عدة الأصنام ثلاثمائة وستين حين فتح الله مكة على رسوله، فجعل يطعن في وجوهها وعيونها ويقول (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)، فكانت تتساقط على رءوسها.

وبتطاول العهد على الأصنام أصحبت آلهة تعبد فهذا عبد "العزى" وهذا عبد "مناة" وهذا عبد "اللات"[٦] وهؤلاء عباد أصنام أخرى حتى لتسمع أبا سفيان يقول يوم أحد "اعل هبل" ويجيبه المسلمون "الله أعلى وأجل".

وفي هذا المجتمع تحتشد الموبقات مثل وثوب القبائل بعضها على بعض لتغنم أرزاقها، وقطع الطريق وتظالم الناس وأكلهم الأموال بغير حق وتسخير القوي للضعيف، واسترقاق المخطوف، أو شرائه ليسترق.

* * *

وفقدت المرأة قيمتها في بعض القبائل فثمة وأد البنات وأنواع مزرية من الزواج في بعض الأنحاء كزواج الرجل الواحد ممن لا يحدهن عدد ولو زدن عن العشرة، وقد يجمع الرجل بين أختين، أو يخلف الولد أباه زوجا لامرأته، بل عرف زواج المرأة لرجال متعددين، ولبعض النساء إذا شئن تطليق أزواجهن بتحويل باب الخباء إلى ناحية أخرى. وثم زواج الاستبضاع وهو أن يعهد الرجل إلى زوجته في أن تحمل من رجل نابه الذكر أو ظاهر الوضاءة ثم ينسب لزوجها من حملت به! وهناك زواج الشغار، والزواج إلى أجل، وزواج البغايا يدخل عليهن من شاء فإن ولدت جئ بمن يقفو العلامات فينسب الولد إلى من يراه أشبه به. وأباح المجتمع استغلال الإماء في البغاء، ولا عجب إذا قرأنا في مجتمع كهذا ابتذال المرأة – وإن كانت في قصر ملك – فيما سجله النابغة

(٦) ذكرها القرآن وذكر ودا وسواعا ويغوث ونسرا. وكانت ود لقبيلة كلب بدومة الجندل وسواع لهذيل ويغوث لمراد في اليمن ونسر لبني الكلاع، ومنها أساف ونائلة لجرهم وقريش وذو الخلصة لخثعم باليمن وعم أنس لخولان وكثير غيرها لكثيرين.

الذبياني في قصيدته الشهيرة (المتجردة). أو شهدنا صورا للغزل الفاحش في شعر أشهر شعراء الجاهلية: امرئ القيس.

ولا عجب إذا شاعت خبائث المدن التي تلتقي فيها المواصلات كالخمر والفحشاء والميسر وفراغ الأغنياء واستغلالهم الفقراء بالربا وبيوع الغرر، وإن سلم من هذه المثالب قلائل تنسب إليهم المكرمات كأمية بن الصلت، وعبد الله بن جدعان، وصعصعة بن مالك (جد الفرزدق)، وقس بن ساعدة، وحاتم الطائي وزيد بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب. وقد كان زيد يفدي الموءودة ويربيها ويهبها لأبيها، ولا يأكل ما ذبح على النصب ولا يعبد الأصنام.

وتناهت فضائل قبائل وخصائص رجال إلى غاياتها في الجاهلية، فارتفع ذكرها وذكرهم، وزادتها رسالة الإسلام ثباتا بالتقوى – فبنو شيبان – من بكر بن وائل – رجالات حروب مع الفرس في الجاهلية، وأبطال المعارك في الإسلام. وقدور حاتم الطائي تجري بأخبارها القوافل في الجاهلية حتى إذا طلبها الأشعث بن قيس من ابنه عدي ليطعم الجموع بعث بها ملآى! قال الأشعث: إنما طلبناها فارغة. قال عدي: لا نعيرها فارغة.

لكن مخابث الوثنية لم تبلغ في أغلب القبائل أن تزري بما فطر عليه العرب عامة من الحرية وكرامة النفس واستقلال الذات، ولا بما كان لذوات الأحساب من النساء من شأن. فمنهن الملكات في الجنوب والشمال كبلقيس والزباء، والشاعرات كالخنساء، وسيدات على السادات كهند زوج أبي سفيان، أو مسعرات حروب طويلة كطول قصصها المحفوظ(٧)، أو الجميلات والنبيلات والأمهات والنبات الملهمات للحكمة أو للقصيد النضيد، واللاتي يجزن القفار في بسالة الطهر الذي لا يهاب ولا يرتاب، والتاجرات الناجحات، والواهبات عن وجد أو جهد، والمحاربات في الميادين يذدن عن حياض عشائرهن يزينهن الوفاء والنبالة والجسارة والخصال المحببة التي تتناتج باجتماع الأنساب بين القبائل، أو بالاتصال بحضارات الأباش والروم والفرس، في تجارات تسير بها القوافل أشهرا في كل عام أو تجري بأسواق سنوية أو موسمية أو أسبوعية يتصاهر فيها الأبيض والأسود والأحمر. وتتراءى آثار ذلك في وجه العربي وخصاله، كما تتراءى آثار التلاقي بالأسواق والموانئ العالمية في ملامح الناس.

(٧) من أمثالها حرب البسوس دامت أربعين عاما (٤٩٤ – ٥٣٤) وحرب داحس (٥٦٨ – ٦٠٨) ولم تتوقف حروب بكر وتميم إلا بعد إسلامهما. وسيرد علينا شأن الأوس والخزرج.

ومزايا العربي قسمة بين الرجل والمرأة، وإن كان بيتهما من شعر في بيداء موحشة. فهما يشتاعان ابتسام صحو السماء وانفساح الصلة بالصحراء، جوادان ولو كانا في ضيقة أو مشقة، وموئل أمان لابن السبيل ولو كانا في فلاة، أو في القفر الذي لا ينتج أي شئ أو الفقر الذي يئن تحته المقيم المقل ويعاني لأواء المرتحل. والصحراء التي ليس لها حدود طرقها محدودة، والأسفار فيها متصلة. وهما في القرى التي تنبئ منازلها عن سكينة لأصحابها شريكان لكل ما يعمله.

ولم تكن نساء أورية أو آسيا في عهد جاهلية القرون الوسطى، وفيما بعدها، يتساوين مع المرأة العربية في حرياتها، بل كن سلعا يخسرها الزوج إذا قامر فقمر، ويمتلكها الزوج أو الأب أو الابن. تفقد شخصيتها إذا تزوجت وذمتها المالية في أي حال. وفي عصر لاحق لذلك قيل إن روحها روح غير آدمي، في حين تحتفظ المرأة العربية باسمها واسم أبيها تفاخر به، وذمتها المالية وحريتها في التجارة تستعملهما كل استعمال، وتخرج سافرة وتحمل زينتها وتتجمل وتختار الزوج أو تجيز اختياره.

وليس بين القبائل عامة وبين رجال الديانتين اللتين سبقتا الإسلام تواصل إلا ما قد يصحب أسفار القوافل. والأفكار الدينية حبيسة الأديار واحتكار للقساوسة والرهبان.

أما المسيحية فأباحها الروم في القرن الرابع للميلاد، وأخذوا في اعتناقها بعدئذ، ولكن مذاهبها تعددت وتعقدت بتنازع القساوسة وتدخل الأباطرة فيما يتعلق بطبيعة السيد المسيح، هل له طبيعة أو طبيعتان ومشيئة أو مشيئتان، فالامبراطور في بيزنطة يرى للمسيح طبيعتين ومشيئتين. وأهل مصر والشام يقول أكثرهم بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة.

وتوسط البطريريك أثناسيوس بمصر فقال إن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة. واختلفوا قسمين: الأقباط بمصر[٨] ومسيحيي حوران.

---

(٨) قالت الكنيسة الأرثوذكسية بمصر: إن الله ذات مثلثة الأقانيم: أب وابن وروح قدس تجسد الابن من الروح القدس من مريم وصار هذا الجسد وحدة ذاتية جوهرية وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين.

وفي القرن الرابع انتشرت عقيدة (أريوس) وفحواها أن أقنوم الابن غير مساو لأقنوم الأب في أزليته وأن يسوع الابن الأزلي (مخلوق) وانعقد مؤتمر كنسي في نيقية سنة ٣٢٥ بحضور الامبراطور وأعلن العقيدة الملكانية "إن المسيح إله واحد من جوهر أبيه وولد من مريم البتول وصلب ودفن ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى

وظهر (أتباع نسطور) في العراق والجزيرة، وتعددت الطوائف، فبعض يعلن أن المسيح لم يصلب وإنما صلب مكانه رجل آخر، وبعض يقول بعدم الخضوع لتعاليم رؤساء الكنيسة. وأدى الخلاف الديني إلى خروج بعض الشعوب من حوزة الروم إلى حوزة الفرس مثل الأرمن.

* * *

والفرس وثنيون أقرب إلى هوى العرب لكنهم يختلفون فبعض مانويون، وبعض زرادشتيون، يقدسون مظاهر الطبيعة وتجتذب قلوبهم عناصرها كالسماء والضوء والنار والهواء والشمس والماء كأنها كائنات حية وآلهة خير وشر، واتخذوا النار رمزا للضوء أو إله الخير، ومن تعاليم زرادشت في القرن السابع قبل الميلاد أن هناك تصادما بين القوى المختلفة من النور والظلام والخصب والجدب.

ومزج (ماني) في القرن الميلادي الثالث الديانة الزرادشتية والنصرانية، والنور والظلمة، فمن النور كل الخير، ومن الظلمة كل الشر، وما يصدر عن الإنسان من خير مصدره إله الخير، وما يصدر من شر مصدره إله الشر.

وهبط اليهود بعد أن طردهم الرومان من بلادهم أرض اليمن، ثم اضمحل شأنهم فصار لهم من بقاياهم جاليات في بعض المدن مثل يثرب في وسط الجزيرة العربية وخيبر ووادي القرى في شمالها.

وقد لاحظت دائرة المعارف اليهودية أن سخط أنبياء بني إسرائيل على عبادة الأوثان يدل على تسربها إلى نفوس الإسرائيليين، وفي التلمود ما يدل على اتجاهات وثنية، بل إن فيه أشد من ذلك من سخف القول والاجتراء على الله، وأن اليهود قاموا بتغييرات التوراة في تلمود أورشليم وكان موجودا سنة ٢٣٠م، وتلمود بابل وكان موجودا سنة ٥٠٠م، وهم يعتبرونهما أهم من التوراة، كما أصيبت المسيحية بتطرف الغلاة ووثنية الرومان فلقب الشهداء بأوصاف الآلهة وأقيمت لهم التماثيل فانتقل إليهم الشرك وعبادة الأصنام وعتمت عبادة الشهداء أو الأولياء.

السماء وهو مستعد للمجئ تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء ونؤمن بروح القدس الواحد وبروح الحق الذي يخرج من أبيه وبجماعة واحدة قدسية مسيحية كاثوليكية".

وفي القرن الخامس ظهر (نسطور) يقول إن للمسيح أقنومين أحدهما إنساني والثاني إلهي، وأن السيدة العذراء ليست والدة الإله بل والدة المسيح وهذا يناقض الأرثوذكسية. كما عارض (نسطور) بطاركة روما.

أما الهنود فكان لهم في القرن السادس الميلادي ملايين من الآلهة، وتدهور المجتمع الهندي في فساده حتى صار الرجل يخسر زوجته في مقامرة، وصارت تحرق نفسها بعد وفاته. وفاقتها الديانة البوذية والهندوكية فتساوت فيها كلمة بوذا وكلمة الصنم.

obeikandl.com

دول كالجزر في صحراء كالمحيط:

كانت جزيرة العرب تزاحم بأقوامها ودولها في مسيرة التاريخ، فتزدهر في مواقع وحقب، وتتدهور في أخرى، وحسبك شاهدا أن يسبق التاريخ العريق للدول العربية المعروفة حضارات عربية أقدم كعاد وثمود اللتين تستفتحان التاريخ مع بناة الأهرام[٩]، فيطوف أطراف الجزيرة أبو الأنبياء إبراهيم من العراق إلى الحجاز فالشام فمصر قبل التاريخ الميلادي بنحو ألفي عام.

ونشأت في اليمن دول طالت أعمارها وتأثرت الحضارات فيها بتتابع الهجرات قبل انهيار سد مأرب وبعده أمام سيل العرم، فكانت تحيا بالهجرات في أماكن أخرى بقبائل تقيم دولا في الأقاليم، أو جاليات في المدن بالعراق أو شمال الجزيرة أو في الشام.

ومن يهود اليمن ذو نواس أحد الملوك، كما دان بالمسيحية أهل نجران، ومن اليمن نزح بعض إلى بابل ونينوي والعراق، وإلى أرض الله الواسعة.

---

(٩) وما تزال هذه الأمم عبرة المعتبر، ذكرها الله مع الفراعنة ليدرك البشر سنته الكونية. قال {ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد. فصب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد].

كما يقول في تعاظم عاد (وكانت في الشمال):

{فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة} ويشير إلى ضخامة حضارتهم حيث قال: {أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين}. الشعراء ١٢٦.

وكانت ثمود دولة في الشمال صور الله تعالى حضارتها حيث يقول {أتتركون فيما هاهنا آمنين. في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين} الشعراء ١٤٦ – ١٤٩ فهذه حضارة فيها الديار المنحوتة من الجبال كحضارة الفراعين والرومان واليونان وأقرب منها إلى عهد الإسلام حضارة سبأ. والبيان القرآني عنها يغني الواصفين قال تعالى: {لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال.. فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين... وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأيما..}.

وما زالت آثار سبأ قائمة ودلائل حضارة عاد وثمود تشير إليهم حتى اليوم أما مملكة المناذرة في الشمال الشرقي أو الغساسنة في الشمال فقد أدال منهما الإسلام لتتطهر جزيرة العرب من الفرس والروم فتتكامل فيها نواة أمة يجمعها دين ولسان اختصهما الله بالقرآن.

وفي العراق قامت دولة عربية وقفت في وجه الرومان حتى نهاية القرن الرابع، إذ لمعت أسماء المناذرة في عاصمتها (الحيرة)، فمنهم المنذر بن النعمان (٤٧٣) غازي الروم وابنه الأسود (٤٩٣) غازي الغساسنة بالشام، والمنذر بن ماء السماء الذي احتل سورية حتى آخر حدودها الشمالية في العاصمة الدينية أنطاكية. ومنهم النعمان بن المنذر يشتهر بحروبه لكن الشعراء والحكماء في بلاطه أشهر. فمنهم زهير بن أبي سلمى، ولبيد العامري، وعمرو بن معديكرب، والنابغة الذبياني، وأكثم بن صيفي حكيم العرب.

وفي سنة ٦١١م هزم العرب الفرس في موقعة ذي قار، وكان القائد هانئ بن مسعود الشيباني الذي أجار النعمان بن المنذر من كسرى. وذاعت في العرب أخبار الانتصار وما نظم فيه من أشعار كشعر امرأة من بني شيبان تحرض الجنود بقولها:

إن تهزمـــــــوا نعـــــــانق ونفـــــــرش النمـــــــارق

أو تهمـــــــوا نفـــــــارق فـــــــراق غيـــــــر وامـــــــق

وسينشد هذا النشيد أو بعضه نساء المشركين يوم أحد.

وفي عام ٦١٣ للميلاد ظهر الفرس على الروم ثم غلبت الروم في بضع سنين، ولم يمض أعوام حتى استولى المسلمون على الحيرة عاصمة العراق سنة ١٣ للهجرة (٦٢٥ للميلاد).

ودولة كندة يمانية قصد أصولها حضرموت ثم تقلبوا في البلاد وقامت لهم دولة بين سنتي ٤٥٠ – ٥٨٠ في الشرق من شبه الجزيرة ثم صاروا شراذم في القرن السادس الميلادي ومنهم امرؤ القيس.

وقامت في الشام من نسل العمالقة ومن هجرات اليمن دولة الغساسنة في البلقاء وصار ملوكها أمراء للرومان وقيل إن الأقدمين منهم بنوا دمشق.

وفي القرن السادس للميلاد منح جوستنيان أمير غسان لقب ملك (باسليوس) سنة ٥٢٩ وتنصر الغساسنة وصاروا يعاقبة، وأسر الروم الملك الغساني فتفرقت القبائل حتى انتصر الفرس على الروم واحتلوا دمشق سنة ٦١٣ – ٦١٤م ثم استعادها الروم بعد أن بشر القرآن بأنهم سيغلبون في بضع سنين لتئول دولتهم إلى المسلمين بعد سنين في وقعة اليرموك ويسلم الغساسنة.

اللغة عماد القومية العربية للجنس العربي:

والقبائل العربية مع تنازح المنازل للقبيلة الواحدة حتى يبلغ بعضها بانتشاره مئات الأميال تجمعهم وحدة جزيرتهم ولسان الناس فيها وتلاقح الأعراق والتواصل الذي لا ينقطع في الصحارى المفتوحة لقوم تسود لغتهم بغناها لغات العالم حتى اليوم، وإن اختلفت بعض لهجاتها أو ألفاظها أو تعبيراتها.

ففي حين كانت اللغتان اللاتينية أو اليونانية تنحصران وتنكمشان في قاعات الكنائس والأديرة في ظلمات القرون الوسطى، وتطويهما الغارات التي دمرت اليونان والرومان من الشرق أو الجنوب أو الشمال، كانت اللغة العربية تنمو وتزدهر ويحتفل أصحابها بفنون بلاغتها في المواسم والمؤتمرات المسماة بالأسواق، مثل: عكاظ، ومجنة، وذي المجاز، ودومة الجندل، وهجر، وعمان، ودبي، تتحدث عن بعها معلقات ما تزال عنوانا على شعرها الخالد بما فيه من ألفاظ ومعان وأحاسيس وأنغام تتجارى وإياها المأثورات من خطب الجاهلية وأمثالها وحكها، وكما يقول ابن خلدون: "لكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة".

والإمام الشافعي (٢٠٤) وهو حجة في العربية وأدب هذيل في الجاهلية والإسلام يقول ما لا جدال فيه اليوم "ولسان العرب أوسع الألسنة مذهبا وأكثرها ألفاظا ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، لكنه لا يذهب منها شئ على عامتها حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه". وهو في استدراكه يشير إلى عموم القبائل.. ثم يجعل المعرفة بهذا اللسان درجة كمال فيقول: "أولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ولا يجوز والله أعلم أن يكون أهل لسانه أتباعا لغير لسانه في حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه.. فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده...".

"فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها...".

ولقد أتاحت عناية الله للسان العرب من سعة الرقعة وفسحة الزمان والتكاثر والتواصل فيما بينها وبين الأمم حظوظا أتاحت لها ما لا حدود له من الثراء البياني لمن يريد الإطالة، وإذا أريدت الوجازة فبين أيدينا آلاف من النماذج الناطقة بشأوها العالي فيها، من النثر والشعر، حتى لتكامل في البيت الواحد من القصيدة في نحو عشر كلمات صورة أو صور بارعة لا يغني غناءها في لغة أخرى صفحة أو صفحات.

وإنما أراد الله لهذه اللغة أن تسمو وتنمو لتكون قادرة على حمل الرسالة الخاتمة إلى العالم على لسان النبي العربي. والقرآن وهو يسهب أو يوجز يبلغ أبعد أغوار النفس الإنسانية، ويصيب أدق الأغراض، وإذا كانت البلاغة الإيجاز، فالقرآن قمة الإعجاز فهو كتاب الزمان وإن كان لا تعدو آياته ستة وثلاثين ومائتين وستة آلاف من الآيات!

١- وللغة العربية وجه امتياز أو إعجاز تتقاصر دونه سائر اللغات: هو أن الكلمة الواحدة أو الكلمتين أو الثلاثة قد تحوي أجل المعاني في تاريخ البشر، يعلم الله بها خلقه أدق العلم عندما يبلغ الناس درجة القدرة على فهمه. وهو تعالى يدخر فيه معجزة بعد معجزة ليهتدي الناس عصرا بعد عصر. وبأي لغة ترجم إليها.

٢- ويتعاظم الإعجاز إلى ما شاء الله إذ يجعل الله اللفظ "ظاهر المعنى" لا يحتاج إلى دلالة سواه، فلا محل فيه لاشتباه أو تأويل، سواء في العربية أو فيما يترجم إليه من اللغات، ولعل مما أراد الله بهذا الظهور ألا يقصر عن فهم المعجزة العلمية العالم جميعا.

من أجل ذلك يتوالى إسلام العلماء في العصور الحالية التي ساعدت فيها المراصد والمجاهر والأدوات العلمية على إمكان رؤية العين صدق ما جاء بهذه الآيات، وصدق القرآن لا ييسر التسليم به من أعدائه.

إليك أمثالا نختارها في صد عظائم خلق الله، تتابع فيها المؤلفات في هذا العصر من غير المسلمين وترجماتها، وتقف عند هذه الأمثال: لقد ثبت حديثا في صدد أصل الكون أن ثمة عوالم أخرى غير عالمنا الذي نعيش فيه. وآية الله في ذلك هي الأولى في فاتحة كتابه {الحمد لله رب العالمين} وثبت أن الأرض انفصلت عن جرم الشمس. وآية الله في ذلك {كانتا رتقا ففتقناهما} وثبت أن العالم يتوسع وأن باطن الأرض ملتهب هيأ الله سطحه ليمهد للحياة، وأن "الزوجية" قانون المخلوقات، والله تعالى يقرر ذلك في آيات ثلاث {والسماء بنيناها بأيد وإنا "لموسعون" والأرض "فرشناها" فنعم "الماهدون" ومن كل شئ خلقنا "زوجين" لعلكم تذكرون} وما دمنا في صدد أصل الخلق فإنا نذكر بقوله تعالى {فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم

من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى} وبين الله تعالى مراحل القرار في الأرحام ليتكامل في علم الأجنة ما يعتبر كشفا أخيرا جدا تتردد أصداؤه في محافل العلم، ويسلم من أجله العلماء في هذا الفرع من الطب.

* * *

وفي هذه اللغة من غزارة الكلمات والثراء العجيب بالمعاني وتعدد الأساليب وتنوع الدلالات ما لا تجاريها فيه لغة أخرى حتى اليوم، ويشهد برسوخ قدمها في زمن الرسالة أن بعض المعلقات السبع معلق بالكعبة من قبل الإسلام بنحو قرن!.. ويشهد القرآن في تشريعه وتهذيبه وقصصه بخصائص تجعلها أقدر أداة لنقله وحفظه وإظهار إعجازه الإلهي، واحتوائه على كليات وجزئيات قامت عليها الشريعة الأبدية للبشر، سواء بالنصوص أو بالمعنى المستنبط من مجموع النصوص. بل يقر (ألفردجيوم) – رئيس كلية كلهام في انجلترا في النصف الأول من القرن الميلادي الحالي وهو مستشرق تبشيري في المقام الأول – (أنه كان من حسن حظ الإسلام أن بلغت رسالته في وقت كان فيه اللسان العربي في ذروة مجده، وكانت اللغة العبرية الآرية (الأوروبية) في فقر مدقع إذا قورنت باللغة العربية في بلاغتها العجيبة) [١٠].

ويشهد للغة الجاهلية ووفائها بحاجات كل عصر أمثال منها: استشهاد علي بن أبي طالب – وهو إمام في البلاغة العربية – في خطابه إلى معاوية بشعر أبي ذؤيب في الجاهلية حيث يقول:

وقد زعم الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

ومن شعر أبي ذؤيب ما تحسبه من نظم هذا القرن الخامس عشر الهجري الذي نعيش فيه مثل:

وتجلدي للشامتين أريهمو أني لريب الدهر لا أتضعضع

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

ومثله:

---

(١٠) والمستشرق رينان (١٨٩٢) مؤلف (تاريخ إسرائيل) يقول في كتاب (تاريخ اللغات السامية) عن اللغة العربية (إنها لم تعرف في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة.. ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة).

والمستشرقون كافة لا يسلمون أن الله حماها وزادها رقيا قرنا بعد قرن من عهود سحيقة القدم لتقدر على أن تكون لسان رسالته الخاتمة في حين اندثرت لغة المصريين القدماء واحتبست لغتا الرومان واليونان في الأديرة، وأعيتا من يحاول إحياءهما حتى هذه الساعة لتصبح لغة أمة من الأمم.

مـالي أحـن إذا جمالـك قربـت وأصـد عنـك وأنـت منـي أقـرب

وأرى الـبلاد إذا سـكنت بغيرهـا جـدبا وإن كانـت تطـل وتخصـب

والوصف في شعر امرئ القيس في القرن السابق على ذلك العهد يقف شامخا بين أرفع وأدق وأسير الشعر في أي لسان حتى الآن!

وكان من أفصح العرب لسانا أهل المنطقة المحيطة بمكة في الحجاز، فهي ملتقى القوافل وإليها يحج العرب وفيها حضارة مفتوحة على العالم.

هكذا كانت السماء تجن للغة العربية الغد المغيب، وتمدها بكل سبب لترقى جيلا بعد جيل، حتى إذا بلغت سؤددها، كانت خيرة الله لتكون لسانا لقرآنه، ويكون رسوله عربي اللسان خيرة خلقه. فهذه عناية الله جمعت أسباب خلودها في أعلى أساليبها، لتبقى هداية للإنسانية ما تعاقب الجديدان.

* * *

مع ذلك لم تنتشر الكتابة بمكة، بل عرفتها قلة بدأت بحرب بن أمية (بن عبد شمس بن عبد مناف) إذ تعلمها في أسفاره للتجارة وعلمها عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأبا عبيدة عامر بن الجراح وقليلين.

وسنرى ما تعلمه عمر سببا لإسلامه إذ دخل على أخته وهو مشرك فرآها تقرأ صحيفة فيها قرآن فقرأه فآمن وقصد إلى رسول الله فأسلم.

وسنرى بعده أم المؤمنين عائشة وأم سلمة تقرءان المصحف ولا تكتبان، وأم المؤمنين حفصة تتعلم الكتابة على الشفاء بنت عبد الله (من قوم عمر) ويأذن لها رسول الله بالاستمرار في تعليمها، كما يأمر بتعليم المسلمين الكتابة على أيدي أسارى بدر، ويفرض العلم على كل مسلم.

عكاظ: كانت قرية على ثلاث مراحل من مكة نحو الطائف تقام فيها سوق أسبوعية كل يوم أحد وسوق سنوية في ذي القعدة إلى العشرين منه قبل الحج. يجتمع فيها قبائل من أطراف الجزيرة يتناشدون أشعارهم ليعرف أيهم الفرد العلم، وإذا كانت أيام عكاظ في الشهر الحرام، أمن الناس بعضهم بعضا.

وفي اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والأدباء والزعماء، تقارب للأفكار يمهد لرأي عام أو يكاد، ومجلى لمزايا الحرية واحترام الذات، وكان من تقاليدهم عدم المقاطعة حتى يتم المنشد قصيدته أو خطبته مرتجلة أو معدة. ومن المرتجل ما يفوق عمل عام كامل.

وأسعفت أهل الجاهلية إبداعات الاشتقاق من موسم عكاظ، فأطلقوا على الموسمين في عكاظ أنهم "يتعاكظون".

مجنة: سوق قريبة من مكة ينتقلون إليها من عكاظ فيبقون إلى آخر ذي القعدة.

ذو المجاز: هي السوق الثالثة يبقون فيها ثمانية أيام ثم يذهبون إلى عرفة.

والأخيران خلف جبل عرفات على مشارف مكة.

وكانت للأسواق مهابة دور الندوة وحرمة البلد الحرام إذ يضع الناس سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل دخولها، ومن لم يضع السلاح يتعرض للقتل.

والأسواق مؤتمرات أو ملتقيات دورية علمية وقومية اجتماعية تعقد فيها صفقات صغيرة بين الناس أو كبيرة للتجار، أو عامة للموادعة بين القبائل، أو لتأمين القوافل. فهي والمؤتمرات الآن صنوان. وإذا كان من الطبيعي أن تكون هذه الأسواق قريبة من مكة حيث يجتمع الحجيج من قديم الزمان، فلم يمنع ذلك أن تخصص أسواق أخرى للتجارة مثل سوق (دومة الجندل) حيث تلتقي الطرق وتفترق، إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب، وسوق (هجر) وقد تخصصت في تجارة اللؤلؤ وسلع الهند وفارس، يديرها أمراء البحرين، وسوق (عمان) وسوق (دبي)، وهذه الأسواق في شرق شبه جزيرة العرب. أما سوق (جياشة)، ففي تهامة بالحجاز في الغرب.

والعرب في كل هذه الأسواق يتعارفون الأسعار ويتناقلون الأخبار، ويتواصلون بالمصالح، ويتصاهرون.

ويدلنا التاريخ الأدبي للرواد العظماء للمواسم بخاصة، على القمم المضيئة التي تبوأها أعلام الحضارة العربية في ظلمات العصر الوسيط على امتداد القرون لإعداد الأمة ولسانها ليحملا رسالة الإسلام، فامرؤ القيس قد مات سنة ٥٤٠ للميلاد في العام الذي ولد فيه الحارث بن حلزة،

ومات طرفة بن العبد سنة ٥٦٤، وعنترة العبسي والنابغة الذبياني في سنة ٦١٥، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه الله بمكة.

ومات زهير بن أبي سلمى سنة ٦٢٧ والأعشى سنة ٦٢٩.

وامرؤ القيس بحياته وجهاده ونسبه بين الملوك وشعره دليل على مكانة الأدب في جزيرة العرب في أقطارها الأربعة.

وكان كبراء الشعراء يحكمون في الأشعار، فإذا صادفت القصيدة إجماعا علقت بالكعبة وبلغت المعلقات سبعا وقيل عشرا، وليس ما لم يعلق أقل مكانة. فكثير منه سيار على الألسن حتى اليوم، واشتهر من المحكمين النابغة الذبياني، وله شعره الشهير في دولة المناذرة وهو من نجوم قصر النعمان بن المنذر.

ولقد ذهبت دولة المناذرة وبقي شعر النابغة[١١].

---

(١١) النابغة الذبياني: لعل تقلبه في أرجاء جزيرة العرب وإلمامه بلهجاتها من أسباب اختياره حكما بين الشعراء.

نشأ النابغة في قومه ذبيان واسمه زياد بن معاوية، وكانت منازلهم بين الحجاز وتيماء فهي قريبة من أرض الغساسنة (بالشام) وتناقلت شعره القبائل واحتكم إليه الشعراء في عكاظ وترامت أخباره إلى ملك الحيرة (بالعراق)، النعمان بن المنذر، فقربه. وحسده أترابه فوضعوا على لسانه شعرا أوغروا به صدر الملك فهرب إلى الغساسنة في الشام حيث تقلب في نعيم الغساسنة بين دمشق والجولان، ولم يصف له العيش بالشام فرجع إلى النعمان بن المنذر يعتذر إليه عما نسب إليه.

وشفع له رؤساء فزارة في وسط جزيرة العرب فقبله النعمان في بلاطه حتى مات.

وخلدت أشعاره حتى لتطبع مرات في أوروبة من سنة ١٨٦٩ ومنها قصيدة نسبت إليه في "المتجردة" إذ طلب إليه النعمان أن يصفها حين فاجأته في بعض دخلاتها على النعمان فسقط نصيفها فغطت وجهها بمعصمها فنظم أربعة وثلاثين بيتا تسبق مايسمى الآن بالأدب المكشوف أو الصور العارية بأكثر من قرون أربعة عشر.

وتظهرنا مواقع قبيلة النابغة والتحاقه بالملوك ومقامه في العراق والشام على حقائق تاريخية وجغرافية منها أن جزيرة العرب كانت منذ الجاهلية وطنا واحدا يتحرك فيه نشاط القبائل وتتواشج الأنساب، وتروج صناعة البلاغة ويتنافس عليها الملوك، كما تعيش القبائل الكبرى في مواطن شاسعة المسافات. فليس أمرا نادرا أن تكون من قبيلة بلى أم العاص بن وائل السهمي أبي عمرو بن العاص وهو من قريش بمكة . وديار بلى أقرب إلى بيت المقدس.

obeikandl.com

* * *

والأدب فن جامع لفروع الفنون في الحضارات. والشعر جماع فنون العرب، بما فيه من تصوير قد يأطره بنيان متكامل للبيت الواحد، أو معان تتجاوز بالخيال أو بالمجازات اللغوية القصيدة بتمامها، مع جمال اللفظ وموقعه وإيماءاته وجرسه فهو تصوير وغناء وموسيقى تصدح بالحكمة وبدائع اللغة.

والمعلقات – لهذا – تخلد آثار أمة قوية العناصر تتراءى فيها الحيوية قادمة من كل نحو قامت فيه دولها. وهي لا تبلغ هذه الدرجة إلا بتاريخ طويل تسير فيه أكثر من ثلاثة آلاف عام تتقاصر دونها أعمار الأمم الأخرى.

وفي الشعر الجاهلي عامة، دلالات على خصائص هذه الأمة وفضائلها رجالا ونساء، وعلى القيم العليا التي تهون الحياة في سبيل الحافظ عليها كالنسب والعرض والحرية والمساواة والعطاء والشجاعة والأنفة، فترى وتسمع من أهل الجاهلية الذين أعزهم إسلامهم، النعمان بن مقرن يعلن لكسرى يزدجرد: "نحن ندعوكم إلى ديننا فإن أبيتم فالجزية... وإلا قاتلناكم"، أو ربعي بن عامر يدخل على رستم قائد الفرس فيفسد عليه بساطه بسيفه وينظره أجلا ويخرج قائلا: "إنكم عظمتم اللباس والشراب، وإنا صغرناهن".

والمغيرة بن شعبة يجلس إلى جوار رستم فينزله الحرس عن مجلسه فيتجه بقوله إلى رستم ذاته: "إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا، وكان أحسن مما صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ولكنكم دوتموني...".

والنسب العربي ذروة المجد ونحن نقرأ ذلك على لسان النعمان ملك الحيرة في رده على كسرى عندما حاول أن يستخف بالعرب، وسترى الآثار العلمية لذلك في حفظهم لتاريخهم واستقصائهم أحوال الرواة للسنن والأخبار والأشعار، قال النعمان: وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أولها، حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا ويسمي آباءه أبا فأبا. حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينسب إلى غير نسبه، ولا يدعى إلى غير أبيه.

والنسابون في الجاهلية والإسلام عدول. ومن عظمائهم أبو بكر الصديق وقد بايعت له قريش لتولي الديات، ومن النسابين دغفل بن حنظلة من بني شيبان سيمسي معلما للخليفة الأموي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ودغفل من فرع الإمام أحمد بن حنبل في بني شيبان.

وفي حديث لابن عباس عن أمير المؤمنين على أن دغفلا – وهو غلام قد يقل وجهه – ناظر أبا بكر في الأنساب، وعلي حاضر، إذ سأله أبو بكر وأجابه ثم قال لأبي بكر:

إن علـى سـائلنا أن نسـأله والعـبء لا تعرفـه أو تحملـه

واشتد في جدله على أبي بكر حتى قال علي لأبي بكر: "لقد وقعت من العرابي على باقعة (داهية)".

وقال أبو بكر "أجل إن لكل طامة طامة. وإن البلاء موكل بالمنطق". فذهبت مثلا.

وروى أبو بكر لرسول الله ماكان منهما. فتبسم عليه الصلاة والسلام.

* * *

بهذا نضع أيدينا على أمرين تنفرد بهما الأمة العربية في التاريخ، أولهما: اعتزازها منذ الأزل بذاتها وأصولها وخصائصها وبلغتها، واقتدار هذه اللغة على أن تكون لسان القرآن المعجز بلفظه ومعناه، وثانيهما: استعداد هذه الأمة إذ جاءتها المعجزة القرآنية لتجتمع على قضية عامة ذات جلال: هي الرسالة الخاتمة لإصلاح العالم.

ورفعت الرسالة مقام البيت الحرام الذي يحجون إليه كل عام، فجعلت حجه فريضة، وحرمت الأشهر الحرم التي حرموها في تقويمهم القمري وقد ورد بعضه في القرآن وربطت به بعض الأحكام، فالمحرم: سمي كذلك لأنه من الأشهر الحرم لتأمين الحج وطرقه إلى البيت الحرام بمكة، ورجب: سمي كذلك لأنهم كانوا يعظمونه فيتركون القتال فيه، ورمضان: الذي نزل فيه القرآن وفرض صيامه من الرمضاء، إذ كانت التسمية في أيام حر شديد، وذو القعدة: لقعودهم عن القتال فيه، وذو الحجة: لأنه شهر الحج، وقد توارثوا تحريم القتال في الأشهر الحرم من ملة إبراهيم وإسماعيل من قديم.

وبين النبي صلى الله عليه وسلم الأشهر الحرم في خطبة الوداع.

كانت مكة وهذا نشاطها الثقافي والتجاري وموقعها الجغرافي ومقامها الديني والبيئة التي يسود فيها الرجال نواة دولة، كالجمهورية دون أن تعلن، كالكثير من مدن العصر الوسيط، تحدث عن تجاراتها من نحو سبع مائة عام قبل الإسلام المؤرخ (سترايون) وهو جغرافي روماني ولد في عام ٥٨ قبل ميلاد المسيح فقال: "إن من القوافل التجارية ما بلغت عدة عيره ألفا وخمسمائة".

ولا يمكن أن تبلغ العدد المشار إليه إلا أن تضرب جذور نشاطها في القدم إلى الأعماق من عهد عاد. وفي نشاط هذه القوافل دلايل على العلاقات الطيبة بين القبائل الضاربة بخيامها أو المقيمة بقراها في الطريق أو على جنباته، وعلى فضائل هذه القوافل في التعامل، من أداء الأمانات وصدق الكلمة وحفظ العهد مع حدة الذكاء، آلت إليهم أو للكثيرين منهم ثروات يتحدث عنها التاريخ:

كان الوليد بن المغيرة (أبو خالد) يكسو وحده الكعبة عاما، وقريش كلها تكسوها عاما. وكان ينهى عن أن توقد نار في منى إلى جوار ناره إذ كان يكفي الحجيج بطعامه.

وفي حرب الفجار سلح عبد الله بن جدعان وحده مائة رجل، وفي داره عقد حلف الفضول.

ولا غرابة إذا ظهر من مجتمع فيه تلك الأريحية والكرامة والسخاء والتواصل، بعد أن يؤمن برسالة السماء، حكماء وعظماء وساسة موهوبون وقادة صناديد.

ولا غرابة إذا صادف الوليد بن المغيرة في رسالة الرسول ما يهدد سلطانه من المساواة بالناس ومن حرية، الكبير فيها صغير، حتى ينال منه الصغير حقه، فقاومها، أو خاف أبو جهل (وهو ابن أخ الوليد) الدين الجديد على سلطانه، ففقد حياته في أولى معاركه، وجاراهما في جهلهما المشركون.

وسنرى من تجارب العرب وما شهدوه من أحوال أتباع الدينين السماويين المشار إليهما من قبل، وتعقيدات التعاليم وخلافات الأحبار، ما دفع إلى الإقبال الصادق على رسالة نبي يصحح دينه السهل المفهوم ما وقع فيه أصحاب الديانات الأخرى من تحريف تسلمه دراسات عالمية محل إجماع الآن.

oberikandi.com

مولد النبي عليه الصلاة والسلام

وحياته قبل بعثته

في يمن هذه العناية الإلهية بالبيت الحرام وأهله والعرب واللسان العربي، أتى أمر الله فحملت آمنة بنت وهب من زوجها عبد الله، ولم يلبث عبد الله بعد الحمل إلا شهرين حتى لقى ربه راجعا من تجارة له بالشام، وهو في نحو العشرين من سنواته، عند أخوال أبيه بيثرب. ووضعت زوجته بعد أشهر من وفاته حفيدا لعبد المطلب.. فاختار له اسما نادر الوجود في معاصريه وهو "محمد" فكانت التسمية إعلانا لصيغة حمد للوليد الجديد محفوظة له منذ الأزل، يضاف اختيارها إلى حسنات عبد المطلب.

وكان من مألوف قريش أن تعهد تشريفاتها في رضاع أبنائهن إلى نساء يفدن من البادية، لتصح أبدانهم وتفصح ألسنتهم ويسلموا من العجمة التي تخالط اللسان في المدن. وأسعدت السماء بني سعد بن بكر بأن ترجع إليهم حليمة السعدية وزوجها بحفيد عبد المطلب ترضعه بين أظهرهم.

وذات يوم أخبر أخوه من الرضاع أهله أن رجلين شقا بطن محمد فأخذا شيئا فطرحاه، ورجعت حليمة به إلى أمه وهو في الخامسة، ثم صحبته أمه بعد عام ليرى أخوال جده بيثرب. وفيما هما عائدان وافتها المنية فدفنوها بالأبواء على مقربة من المدينة. فعاد إلى مكة مضاعف اليتم تحتضنه أم أيمن ولاته وميراثه من أبيه فكان يقول عنها: "أمي بعد أمي"، وصار قرة عين عبد المطلب يوسع له في المجلس فيجلس حيث لا يتسامى للجلوس أحد.

وحانت منية عبد المطلب فكفل الصبي عمه أبو طالب حتى إذا صلب عوده سعى للرزق يرعى الغنم لأصحابها بمكة على قراريط له (أجزاء من الدينار) فكان يقول: "بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا راعي غنم بأجياد"[١٢].

ورعي الغنم مدرسة في تربية النفس وإنضاج المواهب واتساع الأفق من قريب وبعيد، وارتياد المطارح، وكلها تؤهل صاحبها للقيادة وسياسة الجماعة والرقة للضعيف وللصغير، مع انفساح الآفاق للتأمل والتحمل واصطحاب الأمل وإيتاء كل ذي حق حقه. وكان اليمن طالعه.

---

(١٢) على مشارف مكة أيام ذلك.

تشوفت نفسه يوما لمعرفة ما يجري في ليالي مكة.. فاتفق مع زميل ليسهر ويسمر، قال: (فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس ولم أقض شيئا، ثم عراني مرة أخرى مثل ذلك).

وتأكد عندئذ أن الله صرف اللهو عنه.

وفي الثانية عشرة صحبه عمه في تجارة له إلى الشام، ومن معالم هذه الرحلة احتفال الراهب بحيرا، قريبا من بصرى، بأمره. لكن رحلته في الخامسة والعشرين كانت لحساب نفسه عاملا في أموال خديجة بنت خويلد، حيث خبر أمور المعاملات وشرى واشترى، وتداول طباع الناس وسلوكهم وحاجاتهم وأساليب قضائها مع المساحة والنصفة.

والأسواق محلية أو عالمية مدرسة لا كالمدارس، والرابح فيها من يستبقي النزاهة في نفسه مع قوت يومه فيجتمع له من عمله اليومي فائض قد يسد الرمق، ولكنه يستامى بحسن الأحدوثة ويرفع صاحبه إلى مرتبة تذيع مناقبه.

لهذا أطلقت مكة عليه وصفا صار علما عليه (الأمين).

obeikandl.com

الأمين

وليس أفصح في الدلالة على حقيقة التاجر من شركائه أو أخلائه. ولقد كان أعظم رجل في حياة محمد تاجرا مثله، كان ميزانا للعدالة في قريش كلها إذ وكلت إليه جمع الديات وإيتاءها أصحابها وهو أبو بكر بن أبي قحافة. ومن عدالته بهرته خصال محمد قبل المبعث فكان أول رجل آمن به لأنه بلغ من درجات السمو في البشر ما يجعله جديرا بأن توحي إليه السماء.

وربما كان مثل أبي بكر في الدلالة شريك محمد في الجتارة ذاتها السائب بن أبي السائب المخزومي. فالزهري، محدث القرن الأول، يروي قول النبي صلى الله عليه وسلم عن السائب بأنه (نعم الشريك كان لا يشاري ولا يماري) في حين يروي مجاهد مفسر القرن الأول، قول السائب أتيت رسول الله فجعلوا يثنون علي ويذكرونني، فقال رسول الله (أنا أعلمكم به)، قلت صدقت بأبي أنت وأمي كنت شريكك فنعم الشريك لا تداري ولا تماري.

ففي الروايتين شهادتان لا تماريان ولا تداريان من كل منهما عن الآخر وعن الشركة وعن صدق التجارة، وهي عالم واسع تتقارب فيه المظالم والمطامع واللمم، فيه امتحان يومي للنزاهة، والعصمة فيها بسماحة التعامل وإبهاج أنفس الناس بالصدق والقناعة.

ولسوف تقرأ أصدق الأوصاف له في أجل مقام يلتزم فيه بشر أن يشهد الحق وحده إذ نزل الوحي عليه فقالت زوجته بين يدي الله تعالى ضارعة متعبدة لتثبت جدارته بنزول الوحي: "فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق...".

وصدق التاجر أعلى مستويات الأمانة وإكساب المعدوم فرض يقرنه الله بالصلاة ركنا ثالثا للإسلام، وحمل الكل وصلة الرحم وقرى الضيف والعون على النوائب هي التكافل الذي كان المسلمون به خير أمة أخرجت للناس. وما جمعت السماء ذلك إلا لرجل بايع الجميع له على أنه الأمين.

وتجلت هذه الخلال وهو في الخامسة أو السادسة والعشرين: فتزوج بمزاياه كتاجر صدوق من بني هاشم بن عبد مناف سليلة للسادات من بني أسد في الأربعين ليبقى بضعة عشر عاما يتزكى بالعبادة فيصطفيه سبحانه لرسالته ولتتناهى خصاله في السمو لتكون أخلاق نبي.

زواج الأمين:

لقد اختارت خديجة بنت خويلد، وقد ورثت الكثير من زوجين توفيا من قبل، محمدا ليسافر في تجارة لها إلى بصرى بالشام تيمنا منها بما شاع من حسن أحدوثته. واصطحب واحدا من غلمانها يدعى ميسرة فباع واشترى وأفلح البيع والشراء ورجعا بأكثر مما توقعته، وحدثها ميسرة الكثير عن حسن الصحبة التي طالت في الذهاب والأوبة، وأمانة الأداء في البيع والشراء والطهر والعفة والغمام الذي كان يقيه حر الهاجرة: لم يسمع كلمة في غير موضعها ولا قسما بصنم. ولا لهوا أو تبذلا في موقع ولا خمرا شربها، مع المياسرة والمساهلة وكرم السيرة والسريرة. فكان لما أنبأها به بين يدي بشريات كسبها من تجارتها، متعة أمالت قلبها إلى الرجل الذي بورك لها على يده.

بل روى ميسرة قول راهب يدعى نسطورا أنه لاحظ على تصرفاته ما يشبه تصرفات الأنبياء.

وفي رواية الزهري أن محمدا بعد إذ خرج من لقاء خديجة جاءته نفيسة بنت منية صاحبة خديجة، تقول أخاطبا يا محمد قال "كلا".

قالت ولم. فوالله ما في قريش امرأة – وإن كانت خديجة – لا تراك كفئا لها.

وخطب أبو طالب لابن أخيه محمد خديجة وأمهرها خمسمائة درهم، اثنتى عشرة أوقية ونصفا من فضة، وبنى بها بعد رجوعه من الشام بشهرين وخمسة عشر يوما عقب صفر سنة ٢٦ من عام الفيل، وللزوجة ولدان من زوجها السابق، وهما هند وهالة، وبنت من الزوج الأول تدعى هندا أيضا.

وأضيفت إلى أسر مكة أسرة راضية مرضية، استفتح طرفاها حياتهما بمكرمتين مما يحبه الله ويرضاه وهما العطاء عموما، وعطاء الحرية بوجه خاص، ولأكثر من إنسان.

فرسول الله يعتق حاضنته بركة (أم أيمن) – وقيل أعتقها أبوه – ثم يزوجها من عبيد الحبشي، ويهبها الله منه ابنها أيمن فتكنى به، وتظل تحتفظ بالكنية وإن ولدت عظيما لعظيم من المسلمين

obeikandi.com

غيره، وسترى أيمن عظيما بين عظماء يقدم روحه دفاعا عن رسول الله يوم حنين، وكان واحدا من ثمانية[١٣] كانوا يوم ذاك أقرب الخلق إليه وهو في صميم المعركة.

وأهدت خديجة لزوجها مولاها زيد بن الحارثة بن شرحبيل – فمنحه الحرية كذلك، وسيزوجه أم أيمن بعد زوجها الأول فيكون له منها أسامة آخر قواد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيجري على لسان المسلمين عن أسامة وزيد أنها (حب رسول الله وابن حبه).

وإذا كانت أم أيمن حاضنة النبي وزوجا لبطل من أبطاله وأما لشهيد في الدفاع عن ذاته وأصغر ابنيها آخر قواده صلى الله عليه وسلم، فعتق أم أيمن وزيد في الجاهلية يتصدر العظائم، فالعبودية تبخس كل شئ، والحرية هي الطريق الواسع لنماء العزائم وأداء المهام الجسام.

وبورك للأسرة السعيدة ولم يزدها الإنفاق إلا خيرا والإعتاق إلا عزا. وكان عمل الرسول في تجارتها كما رواه السائب بن أبي السائب. وتجارة الأبرار تجارة مع الله.

واقترن الرغد الهنئ في الحياة الزوجية والتجارة مع الله، بالزهد في الدنيا والاتجاه إلى الله، وأصبح وأمسى يديم النظر والفكر في خلق السموات والأرض.

سمع أن زيد بن عمرو بن نفيل يعيب ما ذبح لغير الله، فلم يذق شيئا ذبح على النصب، وكان في بوانة صنم تحضر عنده قريش يوما كل عام فدعاه عمه أبو طالب ليحضر معه فأبى، فغضب أبو طالب وغضبت عمات الأمين، ومع إلحاحهن لم يحضر عيدا من أعياده.

وتعاظم كرهه للأصنام. قال علي: "قيل للنبي هل عبدت وثنا قط"؟ قال: "لا"، قالوا: "هل شربت خمرا قط؟" قال: "لا. ومازلت أعرف أن ما هم عليه كفر وما كنت أدري كما الكتاب وما الإيمان".

ورزق الله الزوجين أول بنيهما "القاسم" فصار أبوه يكنى به، ثم جاءت زينب، لكن أسرته لا تحجبه عن مداومة التحنث زمنا كل عام في غار حراء بالجبل شاكرا لربه، متأملا في ملكوته.

واختارت السماء القاسم فتوفاه الله ومر "أبو القاسم" بالامتحان صابرا محتسبا.

---

(١٣) السبعة الآخرون:العباس عم النبي. وابنه الفضل.وعلي بن أبي طالب. وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. وهو ابن عمر النبي. وأسامة بن زيد أخو أيمن لأمه. والباقيان أبو بكر وعمر. فلأم أيمن في أقرب الناس لفداء النبي ولدان صنوان.و لبني هاشم أربعة بما فيهم علي. والإثنان الباقيان هما الصديق والفاروق.

ثم جادت السماء على الأسرة برقية وأبوها في الثالثة والثلاثين من عمره ثم رزق بأم كلثوم، وكان يرق للبنات ويحبهن ويشكر الله بسخاء يزداد كلما جد ميلاد، وارتفع ذكر محمد بالسخاء على الفقراء وبالأمانة والزهادة والعكوف على التحنث كل عام.

بناء الكعبة:

ودهم مكة السيل وأجمعت قريش أن تهدم ما تبقى من الكعبة، حين أصاب الماء جدرها من الأساس، فعمل في ذلك بنو هاشم وفيهم محمد. وأعادوا البناء حتى إذا حان وقت وضع الحجر الأسود في مكانه، تنافست عليه القبائل ثم اصطلحت على أن يرفعه أول داخل.

ولمح أبو أمية المخزومي الملقب بزاد الركب مجئ محمد فقال: ها هو الأمين جاء. وقضى الأمين في الخلاف وأزال سببه بقوله (هلم ثوبا) وأمر أن تأخذ كل قبيلة بناحية، فيرفعوا الحجر فيه جميعا. فرفعه الله على يديه وألف بين قلوبهم بعمله وهو في الخامسة والثلاثين.

هكذا أراد الله أن يشكر آخر الأنبياء أبا الأنبياء في رفع بنيان الكعبة ويضع على عاتقه ختام رسالات الإسلام فتكتمل به سلسلة رسله. وينماز منهم بمشابهة إبراهيم يوم رفع واحدة من قواعدها.

وأصبح الناس يتحاكمون إلى (الأمين) ثم جادت عليه السماء بفاطمة الزهراء.

زيد بن حارثة:

وجاء حارثة بن شرحبيل وأخوه كعب من أشراف بني كلب، يسألان عن محمد بن عبد الله فوجداه بالمسجد الحرام، فعرضا عليه حاجتهما.

وفاجأه أن زيدا الذي أعتقه هو ابن لحارثة سافر مع أمه سعدى بنت ثعلبة من أشراف طئ لزيارة أخواله، فاختطفه الأعراب وشب فيهم لا يعرف أهله، ثم باعوه.

والواقعة جديرة بالسرد لمكانة زيد: اشتراه حكيم بن حزام من سوق عكاظ غالي الثمن بأربعمائة درهم لعمته خديجة فوهبته محمد فأعتقه، ولما ترعرع زوجه أم أيمن بعد موت زوجها، فولدت له أسامة، وسيزوجه بعد ذلك بنت عمته زينب بنت جحش وسيتزوج بنت زعيم في قريش بعد إسلامها هو عقبة بن أبي معيط وسيجعله النبي أمير أمراء مؤتة وفيهم جعفر بن أبي طالب. وزيد بطل أمراء السرايا وفيهم أبو بكر وعمر وجعفر وابن عوف وأبو عبيدة وعلي! وإذا كان زيد

طليعة اتجاه الرسول للروم، فابنه آخر قائد لرسول الله على جيش إلى أرض الروم، كان فيه أبو بكر وعمر.

قال حارثة (يا بن عبد المطلب. يا بن سيد قومه. أنتم أهل حرم الله وجيرانه تفكون العاني وتطعمون الأسير. جئناك في ابننا عندك فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه).

وكان صنيع محمد مع حارثة صنيع (الأمين) مع نفسه في حق نفسه وحق غيره. فذلك ما ينبغي له.

قال (سوف أستدعي زيدا فأجعل الخيار له في أن يبقى معي أو يعود مع أبيه وعمه).. وهذا الخيار وليد الحرية.. وابتهج الرجلان بهاتين الاستجابة والنصفة، وأقبل زيد وابتهج بهما وأعطاه الأمين الخيار قائلا: "أنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك. فاخترني أو اخترهما".

ولم يتردد زيد هنيهة بل تبادر إلى القرار الحكيم فقال: "ما أنا بالذي يختار عليك أحدا.. أنت مني بمكانة الأب والعم".

ونظر زيد إلى أبيه وعمه وقال: "نعم قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبدا".

فقام محمد فنادى في المسجد: يا معشر من حضر اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأنا أرثه..

وطابت نفس الأب والعم بما كسبه زيد بانتسابه للأمين ذاته. لقد صار زيد ابن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. ولما أبطل الإسلام التبني بعد بضعة عشر عاما عاد له اسمه: زيد بن حارثة.

وإيثار زيد محمدا على أبويه شاهد لا كالشهود على ما في قلوب المحيطين به من حب، يؤثرونه به على آصرة الدم والنسب، على غير ما ألف العرب. وعندما يتنازل العربي عن آصرة الدم والنسب، فهذه عليا مبادلات الحب. قدم محمد فيها حبه الذي يسمو على التقدير وقدم زيد فيها نسبه للقبيلتين العظيمتين اللتين ينتسب لهما أبواه، وسنرى زيدا عندما آخى رسول الله بين الصحابة بمكة يؤاخي بين عمه حمزة وبينه فهذان عمه وابنه.

وستروي أم المؤمنين عائشة أنها لم تر رسول الله عاريا إلا مرة واحدة في حياتها إذ سارع ليلقى زيدا في الليل عائدا من بعض سراياه. ولما زوجه أم أيمن كان يزوجه أغلى ما ورثه أبواه.

رأته يوما يشرب فقالت له: "اسقني" ونبهتها أم المؤمنين عائشة بقولها: تقولين هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأجابتها: ما خدمته أطول.

قال صلى الله عليه وسلم: (صدقت). وسقاها.

* * *

وفي هذه الآونة من حياته طلب إلى عمه أبي طالب أن يعهد إليه في كفالة ابنه علي وهو يدب نحو الثامنة.

وسنرى من وقائع السيرة مكانة زيد في قريش وفي الجهاز الحربي للنبي، وأن عليا مع مكانته من الرسول والصحابة في السلم والحرب وفي الصهر والقرابة، كان يقبل مكانة زيد من النبي. وأن زيدا مع حبه لعلي، وقد تربيا معا، كان يستطيع أن يرفض قولا لعلي، وعلي يستعين عليه بأمارة من النبي فيعطيه سيفه ليتنازل وسريته عن غنائمهم وسبيهم.

ويمضي الأمين في تحنثه كلما أقبل رمضان، وتمضي به الأيام فيتزوج أبو العاص بن الربيع من زينب فهو ابن أخت خديجة وحفيد عبد شمس وواحد من شباب مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة.

ويحرص عبد العزى (أبو لهب) عم محمد وزوجته أم جميل (أخت أبي سفيان) وهما جاران، على أن يزوجها ابنيهما عتبة وعتيبة من بنتي محمد رقية وأم كلثوم. فعقدا عليهما دون دخول بهما.

openkandil.com

الفصل الثاني

﴿اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه﴾

﴿الأنعام الآية ١٢٤﴾

رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم

كان الحجيج يتقاطرون على البيت الحرام من كل فج عميق، لتستبقي السماء رابطة مقدسة بين العرب. فنظام الحج هبة ربانية لهذا المكان من كرة الأرض منذ دعا له إبراهيم عليه السلام بالأمان من نحو ألفي عام كانت حسب أهله لتنتظم تاريخهم ولغتهم وطبيعة أرضهم وقبائلهم، وتعدهم لأيام لها ما بعدها، فيجئ الله إلى جوار البيت الحرام رجالا يعطرون الزمان بحسن الأحدوثة: من سقاية الحاج، ورفادته، وضيافته، والحلف لنصرة المظلوم، والتمانع والدفاع عن البيت الذي يعظمون حرماته. وكأن أكرومة من السماء أن تعد لرسالتها أكرم هؤلاء.

حببت السماء الخلاء إلى "الأمين" ليتعبد فأصبح غار حراء[١٤] مألفا له. يصعد إليه في جبل إلى الشمال بالشرق البعيد من مكة، في رمضان من كل عام حيث يصفو الأفق وينجو البصر من رؤية الأصنام المحدقة بالكعبة كأنها حراس الشرك المفروض على العباد. وفي تحنث الأمين ذكر لله بالتأمل في خلقه كله. والانفراد والذكر يغلغلان الفكر ويحصرانه في إجلال ملكوت الله ويسموان به حتى أصبحت رؤى الأمين تتحقق في الواقع[١٥].

---

(١٤) انظر الخريطة حيث موقع الطريق إلى غار حراء وإلى غار ثور الذي سيشار إليه في آخر هذا الفصل وهما في طرفين من جبال مكة وبالخريطة مواقع ستذكر.

(١٥) وأدلة الفلاسفة المسلمين على الخلق والتوحيد فطرية واستقرائية تدل على وجوب وجود الخالق وتوحيده (كابن طفيل في حي بن يقظان) وقد كررها كثيرون في الشرق والغرب. وما هي إلا بعض منطق القرآن الكريم في تدليله. وكتاب ابن طفيل مسبوق بكتاب ابن سينا (٤٣٨) عن (حي بن يقظان) ذاته لم يكتب له الانتشار لما غلب عليه من رمز واختصار قرأه السهروردي القتيل (٥٨٧) فحاكاه بكتاب (الغريبة الغربية)

وبكر ذات يوم إلى الغار في رمضان ولاح له في الأفق ملك يقول: "أنا جبريل يا محمد" وبدأ الوحي.

وقد لخصت أم المؤمنين عائشة الوقائع السابقة وبدء الوحي في السابع عشر من رمضان فقالت (أول ما بدئ به رسول الله الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حبب إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك وقال له: اقرأ فقال رسول الله: "ما أنا بقارئ.." وتروي (".. فأخذني فغطني (عصرني) حتى بلغ مني الجهد ثم قال اقرأ قلت: "ما أنا بقارئ" فأخذني فغطني الثالثة وقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم}، فذهب بها رسول الله ترجف بوادره حتى ثقل على خديجة فقال: "زملوني زملوني" فأخبرها الخبر فقالت خديجة: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا. فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل وهو ابن عم خيديجة أخي أبيها فأخبره النبي ما رأى قال: هذا الناموس الذي نزل على موسى... ثم فتر الوحي حتى حزن رسول الله..)

وتصف نزول الوحي بقولها: (كان رسول الله إذا نزل عليه الوحي يغط رأسه ويتربد وجهه ويجد بردا في ثناياه ويعرق حتى لينحدر منه مثل الجمان – اللؤلؤ) وقالت: لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا).

أو كما قال عليه الصلاة والسلام: "أسمع صلاصل ثم أثبت عند ذلك وما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيظ منه".

وطوى النسيان هذا الكتاب كراهة من الجمهور لكاتبه – وفي العصر الحالي عثر على مخطوط (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية) للطبيب الشهير ابن النفيس (٦٧٨) مكتشف الدورة الدموية أحل في كتابه من سماه (كامل) محل حي بن يقظان وهو كتاب أخرجه للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية الأستاذ عبد المنعم عمر. وفي كل من المؤلفات تظهر ثقافة واضعه. وفي مؤلف ابن النفيس طب وفقه وفلسفة يتضح منها أن "الرسالة المحمدية" استجابة طبيعية للتطور البشري وأنها ختام الرسالات ولذلك جاء القرآن ضمانا لخلودها على الأجيال.

وآمن السابقون إلى الإسلام برسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعوه، وكانت أم المؤمنين خديجة نصف الإسلام لمدة ثلاثة أيام. ثم تبعها علي فأبو بكر.

وفتر الوحي مدة عاشها رسول الله بين الخوف القادح والرجاء الملح حتى عاد إليه الملك بآيات تثبت فؤاده من سورة القلم {ن والقلم وما يسطرون. ما أنت بنعمة ربك بمجنون. وإن لك لأجرا غير ممنون. وإنك لعلى خلق عظيم. فستبصر ويبصرون}.

فالله العلي العظيم يقسم أول قسم في القرآن بالقلم، أي بالعلم، ويتكلم عنهما في الوحي الأول والوحي الثاني مما يظهرنا على ميلاد الإسلام في العلم. ثم يواسي رسوله أعظم المواساة فيزكي إدراكه لأنعمه. ثم يؤكد له عن نفسه ما سوف تنجح به الرسالة بقوله {وإنك لعلى خلق عظيم}. ثم يضيف تبارك وتعالى التحدي العظيم بأنه سيرى الجزاء غير الممنون وسيراه معه الآخرون.

وليس أبلغ من قول الله الذي نقلناه وقسمه للتوكيد والتحدي، لتقوية جنان نبي من الأنبياء. بل ذلك من خصوصياته صلى الله عليه وسلم.

ثم تنزل السورة الثالثة في الترتيب للتدريب على شدائد العبادة وتحمل نزول القرآن وترتيله في سورة المزمل. تأمره بقيام الليل إلا قليلا {نصفه أو انقص منه قليلا. أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا. إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا...}. فصار يقوم الليل إلا أقله، وتبعه في ذلك المسلمون الأولون، ليبدأ المجتمع الرباني الذي صار نواة مجتمع الإسلام، حتى أذن الله بالتخفيف فنزلت الآية الأخيرة في السورة للأسباب الواردة بها {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك. والله يقدر الليل والنهار. علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن. علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله. وآخرون يقاتلون في سبيل الله...}.

وهكذا ذكرهم مع العبادة بالضعف الإنساني وما يترتب عليه، وبالسعي في الأرض ابتغاء فضله، وأفهمهم أن منهم من يقاتلون في سبيل الله ليستعدوا للتضحيات عندما يأذن لهم.

obeikandi.com

بطش المشركين:

ولما تكامل الإعداد النفسي والجسدي جاءه أمر الله بنذارة مجتمعة في السورة الرابعة {قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر}. وأنزل الوعيد الشديد لمن تزعم الكفر[١٦]، ثم تواترت السور والآيات في تأييد الرسول وتثبيت قدمه، فكانت السورة الخامسة سورة الفاتحة جامعة لأصول معاني القرآن الكريم ولذلك تكنى (أم الكتاب)، وتبعتها سورة المسد {تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغنى عنه ماله وما كسب. سيصلى نارا ذات لهب. وامرأته حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد} لترد عنه كيد أبي لهب وكان يلاحقه بالتكذيب حيثما ذهب.

والسور والآيات ينزل بعضها بمناسبات تدخرها لها السماء ليتكامل البنيان القرآني مع كمال الدين للمسلمين. في بلاغة تعبيرها وأسباب نزولها معجزات. وفي أساليبها وترتيبها معجزات. وفي نبوءاتها التي تتحقق معجزات وفي تشريعاتها معجزات. وفي كل ما حوته من العلوم النفسية والكونية معجزات. وإن في مسايرة الله لرسوله لتدريبه وتشجيعه وتأييده وبنيان ذاته وتمكينه مما قدر عليه في مجتمعه الصغير الخطير بقريش، ومجتمعه العظيم العالمي في نشر الإسلام، لمعجزات.

---

(١٦) كان الوليد بن المغيرة يسمى من أريحيته (ريحانة قريش) له بستان في الطائف لا ينقطع خبره في صيف وشتاء، ويبنون عشرة لا يحتاجون لكسب رزقهم بالتجارة كعظماء قريش وكان لأبيهم مائة ألف دينار: أولهم خالد – ويروى أن الوليد سمع النبي يقرأ بالمسجد {حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم. غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب..} فانطلق إلى مجلس بني مخزوم فقال: لقد سمعت كلاما ما هو من كلام الإنس ولا الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر.. فقالت قريش صبأ الوليد ولتصبأن قريش كلها.. واستعاده أبو جهل للمجلس فدار فيه الحوار الذي تعنيه آيات سورة المدثر بدءا من {ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا. وبنين شهودا. ومهدت له تمهيدا. ثم يطمع أن أزيد. كلا إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا. إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر..}.

قال ابن قتيبة عما ذكرناه من أوصاف للوليد بن المغيرة وما لم نذكره: لا نعلم أن الله وصف أحدا بلغ من ذكر عيوبه ما بلغ من ذكر الوليد بن المغيرة لأنه وصف بالحلف والمهانة والعيب للناس والمشي بالنائم والبخل والظلم والإثم والجفاء فألحق به عارا لا يفارقه في الدنيا والآخرة ثم أوعده سبحانه فقال {سنسمه على الخرطوم}.

فالقرآن يتابع مشاركته مع قومه في مقاومة الدعوة ووصفهم النبي بما وصفوه وبزجره وبتوعده بما ينخلع له فؤاده.

إذا تتبعنا بقية ست عشرة سورة هي الأولى في النزول حسب ترتيب المصحف المتداول بمصر منذ النصف الأول من القرن الهجري الماضي (١٣٤٤) وجدنا السابعة سورة التكوير تستفتح بعظائم خلق الله: بالشمس إذا كورت وبالنجوم المنكدرة وتستمر آياتها لتحتوي قسما عن رسول الله الكريم {ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين}، وتكذيبا لبهتان المشركين إنه مجنون.

والثامنة سورة الأعلى وبها أنه سييسر رسوله لليسرى، ويأمره بتذكير من تنفعه الذكرى، وفي التاسعة قسم بآيات الله في الليل والنهار، وخلق الذكر والأنثى وثواب على العطاء، وشقاء البخلاء، وفي العاشرة قسم بآيات أخرى لله ومنها الفجر، والمعجزة في خلق الأشياء من شفع ووتر، وبيان بمصير من يشيعون الفساد في البلاد، وفي الحادية عشرة يقسم الله جل ثناؤه بالضحى والليل إذا سجى، ما ودع رسوله وما قلى،ليرد قول المشركين "ودع محمدا ربه" عند انقطاع الوحي فترة، وأعقبها بالثانية عشرة وهي سورة الشروح فيشرح لرسوله صدره صلى الله عليه وسلم، ويؤكد له أن مع العسر يسرا ويأمره بالاجتهاد في دعوته.

وأتبع بالثالثة عشر وهي سورة العصر،تعلن خسران الذين لا يعملون الصالحات، ولا يتواصون بالحق والصبر، ثم نزلت الرابعة عشر تقسم بالعاديات بأن الإنسان لربه كنود وتذكره بيوم حسابه.

أما الخامسة عشرة فتعلن لرسول الله أن الله أعطاه الكوثر، ومن تفسيراتها أنه نهر في الجنة أو ما هو "الأكثر"، ليرد الله تعالى قول المشركين وفيهم العاص بن وائل عند موت "القاسم" إن محمدا صار أبتر – بلا عقب – ويقول تعالى له {إن شانئك هو الأبتر} وستكون عترته الطاهرة هي الأكثر عددا ودولا في أي أسرة في التاريخ الذي عاشه العالم.

وأعقبتها سورة التكاثر وهي السادسة عشرة ليعلم المشركون أن التكاثر يلهيهم ولا يجديهم، وأنهم سيسألون عما يتكاثرون به من النعيم وأن مصيرهم إلى الجحيم[١٧].

---

(١٧) كل كلمة في القرآن لا عوض منها أو غنى عنها، في موضعها، تهب الأسلوب حياة يتحرك بها في صميم الإدراك، ونبضا تحس ضرباته الأنفس من طلاوته وحلاوته في السمع والبصر. ومن أجل ذلك بهر سادات البلاغة حين نزل. وما يزال علماء البلاغة منذ وجدوا حتى عصرنا الحالي تشدهم أسباب إعجازه.

يقول ابن عطية منذ القرن الرابع للهجرة وهو من كبار المفسرين:

"وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم توجد. ونحن تتبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب – يومئذ – في سلامة الذوق وجودة القريحة".

فمفردات القرآن كلمات مختارة كالدرر بين مفردات اللغة،وهي حيث توضع تحيط بالمعنى تمام الإحاطة وتحدث في النفس أبلغ الأثر. وعلى ذلك إجماع المفسرين واللغويين وعلماء البيان في جميع الأزمان. والأولون يبحثون المعاني، واللغويون متن اللغة والصرف والاشتقاق وتركيب الأساليب، وأهل البيان يحتفلون بالأسلوب والصورة وبراعة اللفظ ودقة معناه، إلى غير ذلك من علوم البلاغة التي تشمل الكلمة ومعناها وأثرها من جرس وإيقاع وتناسق ووفاء بالمعنى.

أعطى الجاحظ (٢٥٥هـ – ٨٦٩م) وهو زعيم المعتزلة الكلمة القرآنية المكان الأول في الإعجاز لدقة معناها ورونقها، في حين أعطاه الجرجاني للنظم أو البلاغة كما يرى الرماني أو الفصاحة كما رأى القاضي عبد الجبار من المعتزلة.

وجرى أبو سليمان الخطابي (٣٨٨) وهو من أهل السنة شوطا بعيدا في ميدان الجاحظ. وبين الرماني (٣٨٧هـ – ٩٩٤م) ما في الإعجاز من وجوه البديع وإذا قرأت أمثالا منها في كتاب كبير لابن أبي الأصبع المصري (٦٥٤هـ) هو تحرير التعبير رأيت أعاجيب. وجاء الباقلاني (٤٠٣هـ – ١٠١٣م) وهو متكلم أشعري فذكر معاني عشرة للإعجاز تظهر بها الكلمة القرآنية برونق بارز في أي كلام. ومن بعدهم جاء الراغب الأصفهاني (٥٠٣هـ – ١١٠٩م) فألم بمفردات القرآن وغاص على الفروق الدقيقة بين الكلمات واختصاص الكلمة القرآنية بما جاءت به في الموضع الذي جئ بها إليه.

ويذهب الجرجاني (عبد الظاهر) ٤٧١هـ – ١٠٧٨م صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز إلى أن إعجاز القرآن في تأليفه ونظمه ومواقع كلمه وتجانسها الذي يحدث الأثر في الأنفس وهو أمر لم يحدث مثله في العرب من قبل. وجاراه جار الله الزمخشري ٣٥٨ – ١٠٥٧ صاحب الكشاف وأسرار البلاغة وأتبعهما الفخر الرازي (٦٠٦هـ) وهو متكلم شافعي مفسر. وفي القرن الهجري الماضي ظهر كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعي، يرى أن ألفاظ القرآن صارت بطريقة استعمالها ووجه تركيبها كأنها (فوق اللغة)، تظهر في تركيبة المجتمع فترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعة فيها، وتكون بتركيبها المعجز "طبقة في اللغة". ويضرب الأمثال من آيات الله في كتابه لبيان ما تحدثه الكلمات القرآنية من تأثير بما لها من جرس، وتصوير، وبما فيها من حس، ويشير إلى الأصوات الثلاثة صوت النفس وصوت العقل وصوت الحس. ويرى هذا الصوت الأخير هو الذي وجده العرب في الكلمة القرآنية حيث كانت تخلو منه كلماتهم. وقد وجدوه وهو يتلى عليهم لأول وهلة.

وعلماء اللغة على مدار القرون يستخرجون كنوز القرآن.فالعلم باللغة أساس لكل إدراك فيه. وعلماء التربية والأخلاق والسلوك والتصوف عامة مرجعهم القرآن، وهو المصدر الأول للفقه، والسنة هي المصدر الثاني له في التشريع لأنها تفسره أو توضحه، ويجري كل مجتهد شوطه في تخريج أحكامه وفهم نصوصه في عموماتها أو خصوصياتها فمدار الشريعة على القرآن.

ولما تقدم العلم في القرون الحديثة وجد العلماء الكونيون والتطبيقيون فيه معجزات لا تصدر إلا عن خالق الكون العالم بأسراره.

ثبات المسلمين:

فالله تعالى يشد أسر رسوله في بداية التأسيس بقرآنه العظيم فيستمر على يقينه ولا تثنيه الزعازع، ومن ذلك كان ثباته وإصراره واقتداره على حمل أعباء الرسالة وتشجيعه وتأييده وبنيان ذاته وتمكينه مما قدر عليه في مجتمعه الصغير الخطير بقريش، ومجتمعه العظيم العالمي في نشر الإسلام.

ولسوف نرى الوعد الحق والتأييد المتلاحق في كل موقف فكري أو إنساني أو عسكري بالآيات أو السور أو الجند مرئيا وغير مرئي. وسنرى القرآن العظيم ذاته قد صار خلق الرسول ذاته. فاجتمعت له من روافد القوة الإلهية ما لا تعتريه معه أثارة من ريبة في أن الله بالغ أمره، محقق وعوده، وأن بلوغه بالرسالة شأوها حجة له أمام الله وحجة لله به على البشر. وبهذا تضافر قضاء الله وجهاد رسوله لهداية العالم كله، لا قومه وحدهم. وهذه درجة خاصة بخاتم رسله صلى الله عليه وسلم.

هو ذا فرد واحد لا سلطان له. تتكالب عليه أنواع طغيان كالطوفان من أمة بتمامها، إلا أفرادا قلائل، بعدوان مدبر وتآمر مستمر، وأموال تجمعت من قرون، تؤيدها قوى ظاهرة أو خافية في الظلمات من الخرافات والخوف، والحسد والميل للهوى، والجهل وحب النفس والثراء والجاه، وإلف القديم مما تعوده الجاهلون. كل أولئك يقهره الفرد الواحد بإيمان ينشره على العالم في سنوات معدودة هي في تاريخ الدنيا كانفجار الفجر في يوم واحد بشمس ليس لها غروب.

والقرآن مأدبة الله تعالى يجد فيه خلقه ما يكفيهم وأسلوبه يمزج الفضائل ويؤالف بين فحواها لتأسر السمع والبصر والفؤاد مجتمعة، ونحن إليها حنين الفطرة، فتلتقطها من حيث فرقها الله في آياته لتحدث ما يريده تعالى من الأثر، فهي لا تنزل في الناس ككتب التعليم في صحيفة أو صحف مجتمعة، وإنما يلقونها فيه متهيئين لقبولها والإفادة منها مع التهذيب بالترغيب والترهيب والقصص وبيان سنن الله في خلقه. وكل مقصد من مقاصده تعالى يجذب الأنفس إلى خالقها سبحانه، بأدق كلمة في اللغة تحديدا للمدلول ووفاء بالقصد وحسنا في التذوق والرونق.

وإعجازه التشريعي لا يقاربه تشريع لأمة على مدار القرون في كل العالم، وإن اتجه بعضها للاقتباس منه. ومن معجزاته تحقق النبوءات فيه على أعين الأحياء الذين نزل في عهدهم ومنها سلامته من الاختلاف مع شموله كل ما يتعلق بالعالم في كل باب واتساعه. كل أولئك مع وضوح معانيه أما منهجه العلمي فقد نقلته أمم أوروبية فيما ترجمت من كتب المسلمين ابتداء من القرن الثالث عشر للميلاد. (راجع كتاب القرآن والمنهج العلمي المعاصر للمؤلف طبعة دار المعارف الباب الرابع).

* * *

صلى "جبريل" عليه السلام من بدء الرسالة أمام رسول الله بعد أن توضأ، وصلى رسول الله بأبي بكر وعلي وأم المؤمنين خديجة. ودخل في الدين طائفة من أنبل القبائل بدعوة أبي بكر: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد بن نفيل، وعبد الله بن مسعود (من هذيل)، وعثمان بن مظعون، وأبو سلمة، والأرقم، وعبيدة بن الحارث، واستجاب المستضعفون من الأرقاء: كبلال بن رباح، وعمار بن ياسر وأبيه وأمه. وأخفى بعض إسلامهم وأعلنه بعض وكثير منهم من صميم قريش.

واهتز كيان أبي لهب والمسلمون يتواتر إسلامهم حتى صاروا عشرات يتزايدون، المشركون يغلون في أذاهم بالحديد واللهب حتى اشترى أبو بكر "بلالا" من أمية بن خلف وأعتقه، واشترى ستة وأعتقهم، ورسول الله يرى عذاب عمار وأهله فيقول لهم: "صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة". واستشهدت سمية أم عمار. قتلها أبو جهل.

واختار المسلمون دار الأرقم بن أبي الأرقم لأداء عبادتهم بمعزل، وليتذاكروا فضائل الإسلام ويتدارسوا ما ينزل على النبي من وحي السماء ويحفظوه ويعملوا به.

والآيات تنزل كهزيم الرعد وزلزلة الأرض، فيرتاع لسماعها المشركون. وأبو لهب وزوجته أم جميل جاران لصيقان يتماديان في إيذاء رسول الله. الأول بتكذيبه وهو يحدث الناس والثانية بوضع الشوك في طريقه فيقول (أي جوار هذا يا بني عبد مناف)، فأبو لهب عمه، وأم جميل أخت أبي سفيان، وعبد مناف جد الجميع. وأمرت أم جميل ولديها فطلقا زوجتيهما بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أبو لهب ابنه عتيبة ليعالن رسول الله بكفره. وسيمتد الزمان بعتبة فيسلم بعد فتح مكة ويكون إلى جوار رسول الله يوم حنين أما عتيبة فأكله الذئب في طريقه إلى الشام للتجارة.

وكان عقبة بن أبي معيط بن عبد شمس جارا آخر يواصل إيذاءه بجواره وبالمسجد. ألقى فرث جزور عليه وهو ساجد، وفي صلاة وضع رجله على عنقه صلى الله عليه وسلم.

وضرب المشركون أبا بكر حتى أغمى عليه وحمل إلى داره، فلما أفاق قال لا أذوق طعاما حتى أرى رسول الله فجئ به إليه في الليل، كما أثخنوا بالجراح بن مسعود لقراءته القرآن في المسجد.

في ذلك اليوم أسلم حمزة عم النبي بعد إذ ضرب أبا جهل لما قيل له من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم أسلم عمر فخرج المسلمون إلى المسجد عصبة ذات أيد، حتى ليضرب سعد بن أبي وقاص مشركا يشاكسه فيشج رأسه، ويكون أول دم أريق في الإسلام كما سنرى سهمه أول سهم رمي به.

ورزق رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنه عبد الله، ولكنه توفي قبل أن يتم رضاعه وشمت المشركون.

ودعا عشيرته الأقربين إلى دار عمه أبي طالب يبشرهم بالإسلام وينهى عن عبادة الأصنام ويأمرهم بالتوحيد وتقوى الله، قال أبو لهب: "ألهذا دعوتنا"؟ وحصب ابن أخيه بالحجارة واستمر مع قريش يكيد له.

يقول عبد الله بن عمرو: "لقد رأيتهم وقد اجتمعوا يوما بالحجر.. فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل. سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا و...". فبينما هم في ذلك طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت فغمزوه ببعض القول، فمضى يطفو حتى مر بهم الثانية فغمزوه بمثلها، فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: "أتسمعون يا معشر قريش. والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح"، فأخذتهم كلمته فأخذوا يهدئونه حتى قال أحدهم: "انصرف أبا القاسم راشدا. ما أنت بجهول". حتى إذا كان الغد اجتمعوا – وأنا معهم – فتلاوموا على تركه بالأمس وطلع رسول الله فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون له: "أنت الذي تقول كذا وكذا.. قال: "نعم أنا الذي أقول ذلك".

وأرسلت إليه قريش ليكف عما يدعو إليه فرفض. فذهبوا إلى أبي طالب ليكفه عن آلهتهم أو يسلمه إليهم فأجابه رسول الله: "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته".

قال أبو طالب: قل ما أحببت والله لا أسلمك أبدا.

ولما استيأس المشركون أنذروه ثم عادوا بعرض جديد: أن يسلمه إليهم ويأخذ مقابله واحدا من سراتهم، فسخر منهم فازدادوا تعذيبا لمن بأيديهم من المسلمين بحرق أجزاء من أجسادهم أو بقتل بعضهم.

في هذه الآونة سمع أبو ذر الغفاري بالبادية عن رسول الله فجاء مكة فآمن. ولم يكتم. فأحدقوا به يؤذونه لولا أن بصرهم العباس بن عبد المطلب بأن غفارا في طريق تجارتهم. فرحل إلى باديته ينشر الإسلام في قبيلته غفار.

ثم ذهب عتبة بن ربيعة إلى الرسول يعرض عليه: المال أو الشرف أو الملك فيهم، فلما فرغ من عرضه تلا عليه رسول الله آيات من سورة (فصلت) حتى بلغ قوله تعالى {فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} فأخذه الفزع فوضع يده على فم رسول الله. وعاد عتبة إلى قومه يقول: "خلوا بين الرجل وما هو فيه..". قالوا: "سحرك"؟

ثم اختلف ثلاثة من الزعماء فرادى في ظلام الليل إلى حيث يسمع كل منهم في خفاء عن الآخرين رسول الله يقرأ القرآن. ثم فوجئوا إذا انصرفوا وتلاقوا بضبط أنفسهم يتجسسون على النبي فرادى ومجتمعين. فعادوا إلى أنفسهم يتساءلون، قال أحدهم: "إنه لحق". وقال آخر: "لا أعرف". وقال أبو جهل: "تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف حتى إذا كنا كفرسي رهان، قالوا منا نبي يأتيه الوحي فمتى ندرك مثل هذه،والله لا نؤمن به".

وازداد المشركون بطشا، فكانت مولاة خباب بن الأرت تضع الحديدة المحماة على رأسه فأتى رسول الله ليدعو له أن ينجيه.

obeikandl.com

قال خباب: فقعد صلى الله عليه وسلم محمرا وجهه فقال: "إن من كان قبلكم يمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم، وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه. ويوضع المنشار على مفرق أحدهم فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه. وليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه"(١٨).

* * *

وتعاظمت المؤامرات للخلاص من شخصه. فأجمعوا أن يحملوا عليه حملة واحدة ليقتلوه، فلا يعرف القاتل ويتفرق دمه في القبائل. وتقاسموا حول الكعبة، ونقلت فاطمة الزهراء إلى أبيها ما رأته وما سمعته من تقاسمهم. فتوضأ وخرج إلى الكعبة فحصبهم بالتراب فأبلسوا. ثم قال صلى الله عليه وسلم "شاهت الوجوه"، فكان من أصابهم التراب صرعى يوم بدر أولى معارك الإسلام.

وتتابعت حملات الإيذاء، فحمل أبو جهل حجرا ليرضخ به رأس رسول الله وهو ساجد حتى إذا دنا منه ارتد منتقعا لونه ورمى الحجر من يده ولامه أصحابه فقال: لما دونت منه عرض لي فحل من الإبل ما رأيت مثله هم أن يأكلني.

وخنق عقبة بن أبي معيط رسول الله فمنعه أبو بكر وهو يقول: "أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم".

وفيما هو يطوف ذات يوم بالكعبة أحاط به أبو جهل، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط. وأخذ أبو جهل بمجامع ثوبه. فدفعه عثمان بن عفان في صدره فوقع على استه. ودفع أبو بكر أمية. ودفع رسول الله عقبة وقال: "أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلا"، قال عثمان: "وكانوا يرتعدون". وقال صلى الله عليه وسلم "بئس القوم أنتم لنبيكم".

وخشى المشركون على آلهتهم سوء المنقلب: دخل أبو لهب (واسمه عبد العزى) على سعيد بن العاص بن عبد شمس يعوده في مرضه فوجده يبكي.

---

(١٨) وسنرى في أسرى حروب الشام من أمثال هذا الدرس العظيم ما يدخل أهلها أفواجا في الإسلام: دعا طاغية الشام (حاكمها الروماني) عبد الله بن حذافة بن قيس حين أسره الروم في حروب عمر بن الخطاب في الشام ليتنصر وإلا ألقاه في النار كما ألقى جماعة من المسلمين أمامه رفضوا أن يتنصروا. فبكى عبد الله.. قال إنما بكيت لأن لي نفسا واحدة يفعل بها هذا في سبيل الله. وكنت أحب أن يكون لي من الأنفس عدد كل شعرة في..فقبل الطاغية رأسه وقال: تنصر وأزوجك بنتي. قال لا أفعل. قال قبل رأسي وأطلق معك ثمانين من المسلمين. فقبل. فلما قدموا على عمر (أمير المؤمنين) قام وقبل رأسه.

– قال أبو لهب: ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه؟

– قال سعيد: لا ولكني أخاف ألا تعبد العزى بعدي.

– قال أبو هلب: والله ما عبدت العزى حياتك لأجلك، ولا تترك عبادتها بعد موتك.

– قال سعيد: الآن علمت أن لي خليفة[١٩].

أما الوليد بن المغيرة (المخزومي) فأنزل الله فيه كما أسلفنا آيات سورة المدثر منها {سأصليه سقر... ولا تطع كل حلاف مهين. هماز مشاء بنميم.. سنسمه على الخرطوم} وسيصيبه الله في خرطومه (أنفه) فيما بعد بل يقترن تحقيق هذا الوعد بنصر بدر أولى معارك الإسلام وبغلبة الروم، فتتحقق على أعين الناس نبوءات نزل بها القرآن من بضع سنين ففي مكة نزلت سورة الروم تعد بنصر الروم في بضع سنين بعد إذ غلبتهم فارس وسيتلاحق تحقق البشريات بانتصار الدين.

حدث العلاء بن الزبير الكلابي عن أبيه: رأيت غلبة فارس الروم ثم رأيت غلبة الروم فارس. ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم وظهورهم على العراق والشام، كل ذلك في بضعة عشر عاما.

(١٩) تتمثل في حياة أبي أحيحة وأبي لهب فظاظة المشركين وخيبتهم: قتل ابنه أحيحة في حرب الفجار فكني به ويقول عنه ابن الأثير (كان أعز رجل بمكة)، وكان إذا اعتم بمكة لا يعتم أحد بعمامته إعظاما له، بل كان يدعى (أخا التاجر) – وقد كرثه الإسلام من كل وجه: كان ابنه خالد من المسلمين الأولين فعذبه وطرده ليموت جوعا، وابناه خالد وعمرو من مهاجرة الحبشة، وابناه العاصي وعبيدة من صرعى المشركين يوم بدر، الأول بيد علي والثاني بيد الزبير. أما ابنه أبان فهو الذي أردف عثمان يوم الحديبية فتمت لغياب عثمان بيعة الرضوان وكان صلح الحديبية هو الفتح المبين نفسه – ومن أبناء أبي أحيحة خمسة صحبوا النبي ﷺ واستعملهم في الولايات. فلما توفي ﷺ دعاهم أبو بكر للعودة إلى ولاياتهم وكانت أعظم الولايات (اليمن والبحرين وخيبر وتيماء)، فقالوا مفاخرين بأبيهم وصلتهم برسول الله نحن بنو أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله أبدا. أما أبو لهب فيمثل الجهالة والعناد والكفر الأعمى... وبعد أن نزلت {تبت يدا أبي لهب وتب} {وامرأته حمالة الحطب}، فكانت عوراء مكة – كما سموها – من هلعها تبحث عن رسول الله ويعميها الله عن أن تراه وهو أمامها مع أبي بكر. وهي أخت أبي سفيان وبنت عم أبي أحيحة، وهؤلاء – مع الوليد بن المغيرة المخزومي وقليلين – أئمة الكفر بمكة ولا شك في أن أموال أبي لهب قد ثمرتها له ولزوجته قوافل بني عبد شمس ففي كره عصبية وفي دفاعه عن الكفر مصلحة.

ارتفاع الشمس في غيوم السماء:

١- وفجأ مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قليلون أصبح مصدر قوة حتى استسلم له أبو جهل، إذ باعه رجل من إراش بعيرا ومطله فنادى الرجل زعماء قريش في ناحية من المسجد أن ينصفوه فأشاروا معاجزين للرجل إلى النبي في الناحية الأخرى، ولم يأخذ رسول الله أمرهم مأخذ الوقيعة التي أرادوها للمظلوم – وقد تحالف على نصرته أعمامه من قبل وأخواله وبنو تيم حلف الفضول – وإنما أخذه مأخذ الجد حديث تجب النصفة. فنهض مع الإراشي إلى أبي جهل في داره وناداه باسمه (يا عمرو بن هشام) ليخرج فخرج منتقع اللون. فأمره أن يعطي الرجل حقه. فخضع للوهلة الأولى، بل أجاب: "لا تبرح حتى أعطيه حقه". ودخل داره وخرج بالمال ودفع.

ورجع الإراشي إلى الجالسين بالمسجد يقول لهم جزى الله محمدا خيرا لقد أخذ لي حقي.

ولم يلبث أبو جهل أن جاء.

قالوا له: "ويلك ويلك".. قال: "ويحكم. والله ما إن ضرب محمد على بابي فسمعت صوته فملئت رعبا فخرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه".

٢- وأتبعت السماء الانتصاف للإراشي بالانتصاف لرجل من زبيد ولمن يستحقون البر من أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وهكذا كف رسول الله الظالم وأنصف المظلوم، وأضاف الإحسان إلى العدل والإحسان درجة كمال.

جاء رجل من زبيد (باليمن) يقف على الحلق في المسجد يطلب النصفة من أبي جهل حتى وقف على حلقة رسول الله وأصحابه – فلقد أصبحت لهم حلقة بالمسجد الحرام – فذكر أنه قدم بثلاثة جمال فسامه أبو جهل ثلث ثمنها، ثم لم يسمه أحد شيئا حذر أبي جهل – فأكسد سلعته. قال صلى الله عليه وسلم "وأين جمالك؟" ونهض فنظر جمالا فرها فساوم الزبيدي حتى بلغ الثمن الذي أرضاه وأخذ منها جملين فباعهما وقضاه. وأبقى بعيرا باعه وأعطى أرامل بني عبد المطلب ثمنه، وأبو جهل جالس ناحية السوق لا يتكلم. ثم أقبل رسول الله عليه فقال: "يا عمرو بن هشام بن الحكم المخزومي. إياك أن تعود لمثل ما صنعت بالأعرابي فترى مني ما تكره" فجعل يقول: لا أعود.

وأقبل على أبي جهل زعيم آخر من قريش يقول: "ذللت بين يدي محمد". قال: "إني رأيت رجالا عن يمينه وعن شماله معهم رماح يشرعونها إلي لو خالفته لكانت إياها..".

٣- ولقد كان أبو جهل يفاخر بأنه أكثرنا ديا وأعز نفرا فنزل فيه قوله تعالى:

{كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية. ناصية كاذبة خاطئة. فليدع ناديه. سندع الزبانية. كلا لا تطعه واسجد واقترب} العلق ١٥ – ١٦

ولعل إسلام الحصين، كان في هذه الأثناء أو قريبا منها: حدث صاحب رسول الله عمران بن الحصين: جاءت قريش إلى الحصين وكان شيخا تعظمه. فقالوا كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم.. فجاءه وقال: "ما هذا الذي بلغنا: "أنك تسب آلهتنا وتذكرهم".

قال صلى الله عليه وسلم: "كم تعبد من إله"؟ قال: ستة في الأرض وواحد في السماء.

قال صلى الله عليه وسلم: فأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك". قال: الذي في السماء.

قال صلى الله عليه وسلم: "فيستجيب لك وحده وتشركهم معه.. يا حصين أسلم تسلم..".

قال الحصين: فإن لي قوما وعشيرة فماذا أقول؟

قال صلى الله عليه وسلم: "قل اللهم أستهديك لأرشد أمري وزدني علما ينفعني"، فقالها الحصين ولم يقم حتى أسلم.

وكان النضر بن الحارث يروي أساطير يضل بها الناس، فنزل القرآن في سورة لقمان يبشره بعذاب أليم مهين، وصدق الله فقد نزلت فيه وفي آخرين في سورة الحجر بمكة {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون} الحجر ٩٤ – ٩٦، وأي تأييد كهذا التأييد الجديد. لقد كفاه الله كل هؤلاء. فمنهم من قتله المسلمون كأبي جهل وأمية بن خلف وأخيه أبي وعقبة بن معيط، وعتبة بن ربيعة والنضر بن الحارث، والباقون هلكوا بأمراض أصابتهم. منهم أبو لهب، والوليد بن المغيرة.

واستمر نزول القرآن لطمأنة رسول الله ولتسديده، يقول تعالى له في سورة الطور ٤٠: {فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم}. ويقول في إبراهيم ٤٧: {فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام}.

إنه بأعين الله. والله لا يخلف وعده. وقضى الله أنه منتصر، وأن رسالته بالغة غرضها حيث قال تعالى في الصافات ١٧١ – ١٧٢ – ١٧٣ {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم

المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون} وقال في الحجر ٩ {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}. وفي هذه الآيات وغيرها كثير نزل بمكة تكرار للتأييد مع التوكيد للعهود.

* * *

فإيمان رسول الله بالعهود من خالقه سبحانه هو المصدر الأعظم للشجاعة الخارقة التي أشهدها العالم في كل مواقفه والله يؤكد لهفي الآية الواحدة أكثر من تأكيد إذ يعده النصر والغلبة معا مثل قوله: {إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون}. ويتكرر التأكيد بما يماثله أو يضاعفه. ومن ثمة كان إيمانه بالنصر إيمان نبي.

الهجرة إلى الحبشة:

أذن الله للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة فقال رسول الله: "سيروا إليها فإن بها ملكا لا تظلمون عنده"، وقال لهم: "إن الله سيجمعكم". فهاجر في المرة الأولى من المسلمين اثنا عشر رجلا وأربع نسوة في رجب سنة خمس من المبعث، يتصدرهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله، ثم رجعوا بعد شهرين، إذ جاءهم نبأ بانتشار الإسلام بمكة، فلما قدموا حل بهم العذاب، فرجع إلى الحبشة بعض وبقى بمكة بعض.

وهاجر في المرة الثانية بعد عودة السابقين بقليل ثلاثة وثمانون رجلا وثماني عشرة امرأة، إذا استعرضت أسماءهم رجالا أو نساء وجدتهم من كل القبائل الشهيرة في قريش، أو أبناء أو أقرباء لزعماء المشركين، منهم أربعة من العشرة المبشرين بالجنة، وثلاثة سيتزوجن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا العدد من السابقين والسابقات ينبئ عن دخول الإسلام مع إضماره في قلوب عدد من نظرائهم أو غيرهم.

وارتاع زعماء المشركين لكثرة هؤلاء في مهاجرهم حتى نصر الله المسلمين في موقعة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة وولى المنهزمون فرارا إلى مكة يتساءلون عما يفعلون قال قائلهم:

إن ثأركم بالحبشة.

وأرسلت مكة عمرو بن العاص بن وائل، وعمارة بن الوليد بن المغيرة، ومعهما الهدايا إلى البطارقة ليدخلوهما على النجاشي.

قال النجاشي: "لا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم وأسألهم عما يقول هذان". وأرسل إليهم فاجتمعوا.

قال النجاشي: "ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟"

قال جعفر بن أبي طالب: "أيها الملك إنا كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان.. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام". وعدد عليه أمور الإسلام حتى قال: "وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، فصدقناه واتبعناه على ماجاء به من الله. فعبدنا الله تعالى وحده لا نشرك به شيئا. وحرمنا ما حرم الله علينا. فعدا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، ونستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك".

قال النجاشي: هل معك مما جاء به شئ؟

فقرأ جعفر: {كهيعص} – سورة مريم – فبكى النجاشي وبكت أساقفته حتى أخضلوا لحاهم.

قال النجاشي: "إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة"، ثم قال لعمرو وصاحبه: انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبدا.. وعادا إلى النجاشي من الغداة يقولان: إنهم يقولون في عيسى قولا عظيما، فأرسل إليهم فحضروا.

قال جعفر: نقول في عيسى الذي جاء به نبينا "هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم البتول".

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عودا وقال: "ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود".

ثم قال لجعفر وصحبه: "مرحبا بكم. أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجده في الإنجيل.. انزلوا حيث شئتم فأنتم آمنون. من سبكم غرم فما أحب أن لي جبلا من ذهب وأني آذيت واحدا منكم"..

قالت أم المؤمنين أم سلمة – وهي من المهاجرات للحبشة – "فأقمنا عنده بخير دار مع خير جوار".

وتعجل عبد الله بن مسعود فرجع إلى مكة، ثم سمعوا بالهجرة إلى المدينة فرجع نحو الثلث منهم وهاجروا إلى الرسول، وعاد الباقون عند غزوة خيبر سنة سبع للهجرة.

وذاع أمر الإسلام في جنوب جزيرة العرب بهذه الهجرة أو بإسلام النجاشي ونفوذه كبير باليمن حيث الملاحة دائبة بين شاطئي البحر.

وقدم على رسول الله بمكة وفد من عشرين رجلا أو قريبا من ذلك من نصارى نجران، فكلموه بالمسجد وسألوه، ورجال قريش في أنديتهم حول الكعبة، فدعا الرسول الوفد إلى الإيمان بالله وتوحيده، وتلا عليهم القرآن وفاضت أعينهم من الدمع لما سمعوا واستجابوا لله ورسوله، وقد عرفوا من كتابهم التبشير به، فلما قاموا اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، يعيبون عليهم أنهم جاءوا يرتادون لقومهم أمر محمد، فلم تطمئن نفوسهم عنده حتى فارقوا دينهم إلى دينه.

دخول الشعب:

وفي السنة السابعة من المبعث تحالف المشركون على مقاطعة النبي صلى الله عليه وسلم وأهله لعلهم يعزلون الإسلام عن العالم، وكتبوا عهدا بذلك علقوه بالكعبة ليعلنوه لأهل الحرم وحجاج البيت من كل الأنحاء، واتحدت كلمة بني عبد المطلب وبني المطلب، مسلمهم وكافرهم، فنزلوا شعبا لأبي طالب، إلا أبا لهب شذ عن الإجماع، وحصرهم المشركون في الشعب سنوات ثلاثا، منعوا منهم فيها الطعام والشراب حتى أوشك كثيرون على الهلاك.وكان أبو طالب يخاف على رسول الله أن يتخطفوه أو يؤذوه، ليلا أو نهارا، فأمر أن يبيت كل ليلة في فراش رسول الله واحد من بنيه.

وطال الحصار ونفد الزاد فأصبحوا يشترون أقواتهم من مواضع بعيدة مئات الأميال، فإذا وصلت الأقوات حالت قريش دون دخولها إلى الشعب لولا ما كان يتفلت في جوف الليل من إمدادات يحتال بها حكيم بن حزام، وهو ابن أخي أم المؤمنين خديجة، وغيره، فكان المحصورون يتبلغون بأوراق الشجر ويلوكون جذور النبات في الصحراء لعلهم يصبرون.

وكان هشام بن عمرو ذا شرف رق قلبه لهم، فكان يوقر البعير بالطعام ويبلغ به فم الشعب ويطلقه ليدخل عليهم بالزاد، وقد جزى رسول الله الرجلين فكانا من المؤلفة قلوبهم بعد فتح مكة.

وذات ليلة ضبط أبو جهل غلاما لحكيم بن حزام يحمل قمحا إلى عمته في الشعب. فهاج غيظه وصاح به وبسيده، فتصدى له أبو البختري بن الحارث بن أسد (من قوم خديجة)، فشج رأس أبي جهل، وإن كان مثله رأسا في المشركين، وهي صورة ناصعة للسلام في أنفس المحصورين، وللضيق في أنفس المشركين، وهم من الدنيا في سعة.

ولم تصبر الصحيفة التي كتبها المشركون على الزمن إلا سنوات ثلاثا في حين صبرت نفوس المحصورين، فأبلغ الله رسوله أن الأرضة لحست ما في الصحيفة. فأخبر عمه فتحدى قريشا بما أبلغه قال: "إن ابن أخي أخبرني أن الله قد أرسل على صحيفتكم دابة أكلت غدركم، فإن كان كذلك فلا نسلمكموه حتى نموت عن آخرنا، وإن كان باطلا دفعناه إليكم.. ففرحوا وفتحوا الصحيفة، فإذا هي كما قال صلى الله عليه وسلم: وبهت الذين كفروا.

ومشى في نقض الصحيفة بعض الزعماء وتواعدوا على ذلك. وظهر أن الأرض لحست الصحيفة إلا كلمتي باسمك اللهم، وقاوم أبو جهل نقضها فشقها واحد منهم. وكان ذلك قبل هجرة رسول الله إلى المدينة بثلاث سنين وعمره تسع وأربعون.

* * *

في ذلك العهد أو نحوه أقبل الداريون (أبو هند وأخوه نعيم وأربعة آخرون) من الشام وأسلموا. وسألوا الرسول أن يملكهم (بيت جيرون) بالشام فملكهم إياها بكتاب شهد عليه العباس بن عبد المطلب وشرحبيل بن حسنة وخزيمة بن قيس، ومضت سنون وجاءوه بالمدينة، فجدد الكتاب لهم باسم تميم وأصحابه، وشهد على الكتاب أبو بكر وعمر وعثمان وعلي.

لقد وعده الله تعالى بالنصر، فهو عليه الصلاة والسلام يعلم أن المسلمين سيدخلون الشام، ومن حقه أن يملك الناس فيها ويصنع ذلك للداريين مرتين وتفتح الشام في أعقاب موته فيتسلم أصحاب الكتاب ما وعدوه.

لكن آثار التجويع والحصار ظهرت على السيدة التي صبرت السنين وجاعت ليشعب الجميع، أم المؤمنين خديجة، فصعدت روحها إلى بارئها، كما أصابت الآثار أبا طالب فمات وقد عبر الثمانين فسمي العام: (عام الحزن).

وكان حزن رسول الله كبيرا، فكان يعلن مكان خديجة في الجنة ويقول: "أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب" وستراه بعد إحدى عشر سنة، يوم يفتح الله عليه مكة،

يأمر ابن أخيها الزبير وهو يقود الخيل أن يغرز الراية بأعلى مكة (الحجون) حيث دفنت. وهنالك أعدت للنبي قبته.

إنها "الأولى" حيث وضعها الله بين المؤمنين بالرسالة، والأولى من أمهات المؤمنين، والأولى في الصلاة خلف رسول الله والأولى في كثير.....

وحسب أبي طالب ذكرا وشكرا، أن يقول رسول الله: "إن قريشا ما زالت كاعة حتى مات أبو طالب".

لم يكن الشعب مدرسة للجلادة والزهادة والقدوة فحسب، وإنما كان نعمة أنعمها الله على المسلمين ليتضاموا حول الرسول ليل نهار، فتصقل نفوسهم وعقولهم حركاته وسكناته وكلماته على مرأى ومسمع منهم. وكأنما مضت سنوات الشعب كلمح البصر.. فلقد كانوا يعيشون في القرآن وبكل حرف منه، وأكثره نزل بمكة، ورسول الله يعلمه لهم تحفيظا وتفهيما.

بهذا مضت الأيام في العلم بسنن الرسول وفي الصحبة والحظوة، وفي القرآن العظيم وما فيه من العجائب والسير والعبر وسنن الله في الكون وقصص الأنبياء والأمم والدول والنبوءات والدلائل والبشريات. فكان دخول الشعب هجرة إلى داخل النفس أذاعت بها مكة ذكر أصحابها واستمساكهم بدينهم في جزيرة العرب، فخرجت أخبارهم إلى بعيد من مكة من حيث تقدم القبائل وترحل، بمثل ما انتشر حسن الأحدوثة لمهاجرة الحبشة والهجرتان تشهدان على أهل الحرم بظلمهم لأهل الخير فيهم، وتشهدان عليهم صحيفتهم المعلقة بالكعبة.

ولعل هدى الإسلام بالهجرة إلى الحبشة أقعد النجاشي عن ملاحقة اليمن أو جزيرة العرب بغزوه، وقد عرفت جنوده أرضها من عام الفيل وصلاته باليمن وثيقة.

كما أن حديث رسول الله عن قريش يبين أن حياة أبي طالب كانت جنة للمسلمين، ولعل الله أراد ببقائه على دين آبائه نحوا من عشر سنين ما خفض حقد قريش زمانا لا تقع فيه حرب بين بني هاشم وبين سائر قريش، لكن من المتيقن أن سنوات الشعب كانت أجلا آتاه الله رسوله لتحدث أمور يصنعها له.

وأي هذا كان، فقد انتهت فترة وبدأت أخرى هي الخروج بالدعوة بعيدا من مكة، أو فيها، يوجهها إلى القادمين لزوار البيت الحرام من شتى الأنحاء.

أحصن رسول الله بزواج سودة بنت زمعة العامرية بعد موت زوجها، وهما من المهاجرة إلى الحبشة فخاف أن يفتنها أهلها وهي بلا عائل، وعاصر زواجه من سودة عقده على عائشة "بنت أبي بكر" وهي صغيرة. وتأجل الدخول بها حتى تنضج للزواج.

الخروج إلى القبائل:

بدأ صلى الله عليه وسلم بقبيلة ثقيف بالطائف، وهي قبيلة كبرى وثيقة الصلات بقريش، تحتل موقعا حصينا في الجبال، على مبعدة خمسين ميلا إلى الجنوب الشرقي لمكة، فخرج إليها ماشيا ومعه زيد بن حارثة يدعو أهلها للإسلام فردوه مغاضبين، فلما فصل عنهم أرسلوا غلمانهم صفين، يقذفونه بالحجارة حتى دميت قدماه. ودعا ربه الدعاء الأشهر:

"اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي. إلى من تكلني. إلى قريب يتجهمني، أو عدو يملك أمري. إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، وتحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بك".

إن النفس لتقف طويلا أمام هذا الدعاء، وكلما غلغلت فيه النظر رجع إليها بيقين لا يحتمل الجدل: إنه دعاء نبي، أطلق الله قدميه في طريق هو سائر فيها مهما أصابه من اليأس. فلم يرجع خائبا وإن ردوه، ولا رجع إلى مكة شريدا وإن غاضبوه، وإنما هي خطوات على الطريق.

وقد يتساءل المرء لم ذهب إلى ثقيف ماشيا على قدميه، وهي على مبعدة عشرات الأميال، مصعدة أو هابطة من المرتفعات بين الصخور أو السيول في ذهاب وعودة؟ لماذا لا يستعير بعيرا يحمله وصاحبه؟ أم أراد أن يخرج إلى ثقيف دون أن يمنعه المشركون بمكة؟ أم أراد أن يسعى إلى هداية القوم في خشوع العابد؟ وهذا أشكل وأشبه بجهاده. وما كان أعظم أثر هذه الخرجة إلى ثقيف.

روى خالد العدواني أنه سمعه يقرأ في سوق ثقيف {والسماء والطارق}. حتى ختمها، فوعاها خالد وقرأها إذ أسلم بعد. وفي السورة معجزتان علميتان ظهرتا للعالم في هذه الأيام عن وصف النجم بأنه ثاقب ومن وصف الماء الذي يتسبب في الذرية بأنه {دافق يخرج من بين الصلب والترائب} وفي السورة كذلك أكثر من قسم تنخلع له الأفئدة {والسماء ذات الرجع. والأرض ذات الصدع. إنه لقول فصل. وما هو بالهزل. إنهم يكيدون كيدا. وأكيد كيدا. فمهل الكافرين أمهلهم رويدا}.

فالله تعالى يؤيده بأكثر من قسم وأكثر من معجزة في سورة من سور الكتاب العزيز ويؤكد رد الكيد عنه في أجل قريب.

قال زيد وهما راجعان: "كيف سندخل مكة بعد هذا؟"

قال: (يا زيد إن الله "جاعل" لما ترى مخرجا وفرجا، وإن الله "ناصر" دينه و "مظهر" نبيه).

هكذا يحكم على المستقبل بيقين الواثق من غده وهو في أحلك أوقاته، فإن الله (جاعل) فرجا ومخرجا، وإن الله (ناصر) دينه و(مظهر) نبيه، وليس لبشر أن يعلم الغيب ليتكلم بهذه الثقة عنه، وإنما عاهده الله عهدا وهو يعلن العهد بملء فمه لزيد.

ولو كشف الغد لزيد عن صفحته لعلم أن عرض رسول الله الإسلام على ثقيف، هو الخطوة الأولى إلى القبائل. والصبر عند الصدمة الأولى. فسيفتح الله له طريق العالم بعد أشهر بالخطوة الثانية إلى قبيلتي الأوس والخزرج.

لكن فظاظة ثقيف لم تبرح ذاكرته فسنسمع أم المؤمنين عائشة تسأل رسول الله: "هل أتى عليك يوم أشد من أحد؟" وهو يجيب: "لقيت من قومي ما هو أشد. وكان أشد ما لقيت منهم يوم ثقيف، إذ عرضت نفسي على عبد يا ليل بن عبد كلال (في ثقيف)، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مغموم، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب" وهذه على بعد مرحلتين من مكة.

وفي ظلمات هذه السنوات أضاء إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي آفاق مكة، وكان زعيم قومه ذائع الصيت بشعره وجوده، فأسلم على رغم قريش، وتبعه كثيرون من قبيلته، وعاد ليبقى فيها حتى هاجر معه بين السبعين والثمانين بيتا مسلمين.

وفي هذه الفترة عاد بعض مهاجرة الحبشة وفيهم عثمان وزوجته، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة وزوجته، والزبير، وابن مسعود، ومصعب بن عمير وآخرون نحو الأربعين.

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صحبه على الحق والمواساة ومنهم العائدون من الحبشة، فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين عمه حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وعبد الله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله.

ويتراءى في هذه المؤاخاة بين أصحابه منهج الإسلام في المساواة والمواساة، إذ آخى بين عبيدة (ابن عم النبي) وبين بلال الحبشي، وبين عمه حمزة ومولاه زيد، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، فكلهم كأسنان المشط.

* * *

وسار على الطريق فاستمر عليه الصلاة والسلام في المواسم ومعه أبو بكر يدعوان القبائل للإسلام، وأبو لهب أو أبو جهل خلفه يكذبانه متعاونين أو متناوبين أو بمن يكلفان في سوق ذي المجاز أو مجنة أو عكاظ. ومن الناس جفاة غلاظ يخشنون عليه وهو يحلم عليهم. وأخذت الدعوة تحدث آثارها عند بعض ويقف إلى جوارها المسلمون في الأسواق إذا عرض لها الشياطين... حدثت ضباعة العامرية:

أتانا رسول الله ونحن بعكاظ فدعانا إلى نصرته ومنعته فأجبناه، إذ جاء بيجرة بن فراش القشيري فغمز شاكلة (خاصرة) ناقة رسول الله فقمصت به فألقته وعندنا يومئذ ضباعة بنت قرط. وكانت من النسوة اللاتي أسلمن بمكة جاءت زائرة إلى بني عمها فقالت: يا آل عامر، ولا عامر لي، أيصنع هذا برسول الله بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم، إذ قام ثلاثة من بني عمها إلى بيجرة فأخذ كل منهم رجلا فجلد به الأرض ثم جلس على صدره ثم علقوا وجهه لطما. فقال صلى الله عليه وسلم: "اللهم بارك على هؤلاء" فقتلوا شهداء.. وكانت كثرة رواد الأسواق الثلاثة ممن لم يفتح الله عليهم بعد بالإسلام.

يقول ربيعة بن عباد: رأيت رسول الله بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: (أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) ويدخل في فجاجها والناس يتقصفون عليه. وفي رواية أنه سمعه في عكاظ وأبو لهب بكذبه...

وكان بنو شيبان من أكرم الناس لرسول الله. ولهم الكرامة في قبائل بكر بن وائل بنجد والعراق، وهم قد سبق أن انتصروا على الفرس من سنين في وقعة ذي قار (٦١١م)، ثم تصالحوا على أمور أوضحها المثنى بن حارثة في رده على رسول الله إذ دعاهم وفيهم هانئ بن قبيصة والنعمان بن شريك. قال المثنى: (... إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثا ولا نؤذي محدثا، ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه ما تكرهه الملوك، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا).

قال صلى الله عليه وسلم: "ما أسأتم الرد، إذ أوضحتم الصدق، فإنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلا حتى يورثكم اله تعالى أرضهم.." قال النعمان (اللهم فذاك)، ولقد كان ذاك. وصدق رسول الله القول عن المستقبل، فلسوف يحيط المثنى نفسه الإسلام بسيفه من جميع جوانبه بعد أعوام في بطولات سيتحدث عنها التاريخ بعد أن لبثوا قليلا كما قال رسول الله (بضع عشرة سنة).

كانت السنوات الثلاث بعد عام الحزن تبدو لبعض حسوما نحسات، لكنها كانت حبالى مثقلات بالبشريات، تمهيدا للدولة، وفتحا للطريق البعيدة الرشيدة، ولا عجب في ذلك كله، فإن الله هو الذي يصنعه، سواء عندما أسرى بعبده ليشد أزره، أو عندما بويع الرسول بيعات المدينة الثلاثة على مدار السنوات الثلاثة، أو عندما توج ختامها بالهجرة لتكون فاتحة التاريخ الجديد للعالم.

الإسراء:

أكرم الله رسوله بالإسراء والمعراج في زمن حسب فيه المشركون أنه فترت عزيمته أو تخلى الوحي عنه. أما الإسراء فهو توجهه ليلا إلى بيت المقدس بإيلياء ورجوعه من ليلته، وأما المعراج فهو صعوده إلى العالم العلوي. وفي أول سورة الإسراء: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير}.

ويمكن إجمال المعراج في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتيت البراق وهو دابة.. فركبته حتى أتيت بيت المقدس.. ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء ثم ذهب بي على سدرة المنتهى فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي وعلى أمتي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فرجعت إلى ربي وقلت له يا ربي خفف عن أمتي.. حتى قال سبحانه: يا محمد إنهن خمس صلوات.. ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرا.. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب له شيئا ومن هم بسيئة فعملها كتبت له سيئة واحدة..".

ثم رجع من ليلته عليه الصلاة والسلام، فلما أصبح غدا إلى نادي قريش فجاءه أبو جهل فسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى. فنادى أبو جهل الناس فأخبرهم الرسول الخبر، فتعجبوا وأنكروا. وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: "إن كان قال ذلك لقد صدق.. إني لأصدقه على أبعد من ذلك" يقصد أنه يأتيه الخبر من السماء فيخبره فيصدقه، فسمي أبو بكر من ذلك اليوم "صديقا".

فسألوه صلى الله عليه وسلم نعت بيت المقدس– وفيهم رجال رأوه ولم يكن هو رآه من قبل – فجلاه الله له، فصار يصفه بابا بابا وموضعا موضعا، فقالوا أما النعت فقد أصاب. فأخبرنا عن عيرنا – وكانت لهم عير قادمة من الشام – فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال (تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جبل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء.ومررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياما ولهم إناء فيه ماء وقد غطوا عليه بشئ فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان..).

فأسرع القوم إلى (ثنية التنعيم) يوم قدوم العير فوجدوا الجمل كما قال وسألوا عن الإناء فأخبروهم عنه كما قال. وسألوا أصحاب العير الأخرى، فأخبرهم عن بعيرهم، فكان كما قال، وأضافوا أنهم سمعوا صوت رجل يدعوهم إليه حتى أخذوه.

والمشهور أن الإسراء كان ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا، وقد أتت على النبي إحدى وخمسون سنة.

وفي الإسراء والمعراج أقوال.أولها: أنهما كانا بالجسد والروح يقظة لا مناما، وعليه الأكثرية. وثانيها: أنهما كانا بالجسد يقظة إلى بيت المقدس وبالروح إلى السماء. وثالثها: أنهما كانا بالروح ورؤيا منام مع الأخذ بأن رؤيا الأنبياء وحي وفي ذلك قول الله تعالى: {فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك} الصافات ١٠٢، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم". وسند هذا الرأي قوله تعالى في الإسراء ٦٠ {وماجعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس}، وهذا المذهب يعزى لمعاوية بن أبي سفيان في قول له: "كانت رؤيا من الله تعالى صادقة"، وقول عائشة رضي الله عنها: "ما فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن أسري بروحه"(٢٠).

وفي قول: أنه رأى الله بقلبه لا بعينه وفي قول لأحمد بن حنبل: "إنه رأى ربه بفؤاده"، وفي زاد المعاد لابن القيم: أن معاوية وأم المؤمنين عائشة، لا يقولن إن الإسراء كان مناما بل قالا إن الإسراء بالروح دون الجسد وفرق بين الأمرين... والذي كان برسول الله أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة. ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم.. ولا يكفر صاحب قول من هذه الأقوال وإن كان رأي الجمهور أولى بالقبول لتعلق الأمر بمشيئة الله وقدرته.

(٢٠) والحسن البصري يقول نحو ذلك. ومناقشة الأدلة واضحة في زاد المعاد لابن القيم.

لقد نزلت سورة الإسراء لتأييد رسول الله، وقررت أن الله سبحانه الذي أسرى به، ثم أتبع الله ذلك كلامه في سنته في بني إسرائيل، ثم تتابعت الآيات بالسورة ذاتها بسنن الله الكونية، والإسراء عمل كوني مثلها، ثم الاجتماعية التي تتكافأ مراتبها العلمية والفكرية والتشريعية مع المعجزات الكونية التي لم يفهم العالم بعضها، ككثير من آيات القرآن العلمية، إلا عندما بلغ بعض نضجه العلمي. قال تعالى في الآية ١٢ من سورة الإسراء: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا}.

ولم يكن أحد حتى القرن الأخير يعرف أن القمر لا نور له، وأن الله بذلك محى آية نوره بعد إذ كان متوهجا، أو أنه يستمد نوره من الشمس التي يعكس أشعتها فتجعل العيون مبصرة.

ثم تتابعت الآيات في القوانين الاجتماعية وهي هدف الرسالة الأول. فتقرر الآيتان ١٣ – ١٤ القاعدة العامة للمسئولية الإنسانية وأنها شخصية، ثم تقرر الآية ١٥ قاعدة الإعذار بأن الله لا يعذب الناس إلا بعد أن يبين لهم رسله ما يحاسبون عليه، وتتبعها الآية ١٦ لتقرر قاعدة فساد الدنيا بفساد المترفين وفسقهم، وتقرر الآيتان ٢٠ – ٢١ قاعدة تفاضل الناس بعطاء الله ومرضاته، وتقرر الآيتان ٢٢ – ٢٣ أن الله قضى على الناس ألا يعبدوا سواه، وأن يحسنوا إلى والديهم، بل أن يخفضوا لهما جناح الذل من الرحمة في بلاغة قرآنية تذكر بالحداثة التي كانوا فيها أفراخا تحت جناح الوالدين. وتستمر تعاليم القرآن في تشريعه الاجتماعي في وضوح كامل حتى الآية ٣٦ من سورة الإسراء وفيها قوله تعالى: {ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا}، وهي جماع المنهج العلمي، تبين ما يأمر به من استقراء حسي، وما ينهى عن اقتفائه، ليبعد الإنسان من الظن والوهم والخرافات.

وكل مبدأ من المبادئ التي سردناها يقدم قانونا يحكم البشرية وينجحها.

وترى في ذلك بعض أساليب القرآن إذ يجمع بين التشريع الذي يأمر وينهى، وبين التهذيب المحبب إلى القلوب، والقوانين الكونية، بقدر ما تفهمه مدارك الناس عندئذ أو فيما بعد. ومن أجل ذلك تتباعد الآيات العلمية في سور القرآن حتى لا تشق على عقول من يتلونه. ومنها ما تسبق اقتدار الإنسان على إدراكها في عصر الرسالة كحقيقة ضوء الشمس ومحو ضوء القمر التي وردت في سورة الإسراء وغيرها من الحقائق التي تكررت في غير آية مما يكثر كشفه في عصر العلم.

بيعة العقبة:

كانت ثلاث بيعات في ثلاث سنوات:

فقضى الله أن يلتقي رسوله عند العقبة[٢١] في موسم الحج في السنة العاشرة للمبعث (٦٢٠م) بستة من قبيلة الخزرج بيثرب فيدعوهم للإسلام، وفي يثرب قبيلتان من نسل أخوين هما أوس وخزرج[٢٢]. أوقع اليهود بينهما فصارتا تتنازعان وينضم اليهود إلى من ترجح كفته أو يرجحون ما يشاءون، وكان آخر حروبهم يوم بعاث. فلما عرض رسول الله الإسلام على الستة قال بعضهم لبعض. هذا والله الذي تهددكم به يهود. فلا يسبقونا إليه فأسلموا وبايعوا فقالوا للرسول: "إنا تركنا قومنا بيننا وبينهم حروب فننصرف وندعوهم إلى ما دعوتنا إليه فإن اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا أحد أعز منك".

وانصرفوا يقدمهم أسعد بن زرارة فدعوا إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها ذكر لرسول الله. وكان للخزرج فضل المبادأة فهم المنهزمون يوم بعاث يحدوهم الأمل أن يسودوا أن يسبقوا بالإسلام. وللرسول بهم صلة فأم جده عبد المطلب من بني النجار من أشهر بطون الخزرج.

وفي العام التالي قدم اثنا عشرة رجلا منهم خمسة من الستة السابقين وخمسة من الخزرج فيهم عبادة بن الصامت واثنان من الأوس وتلاقوا برسول الله عند العقبة وبايعوه على (ألا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان ولا يعصوه في معروف)، ورد عليهم صلى الله عليه وسلم بقوله: "فمن وفى بذلك منكم فأجره على الله – وفي لفظ فله الجنة – ومن

---

(٢١) العقبة موقع على يسار الطريق القاصد إلى منى من مكة. وكانت كل قبيلة تنزل بموقع خاص.

(٢٢) كان للقبيلتين أيام حروب فحرب (يوم سمير) دامت عشرين عاما وفيها حكموا ثابت بن المنذر أبا حسان بن ثابت بعد أن دارت الدائرة على الخزرج.. وأعقبتها حرب (يوم كعب بن عمرو)، ثم حرب (يوم حاطب) وفيها دارت الدائرة على الأوس، وآخرتها حرب (يوم بعاث) وفيها حالف اليهود الأوس ورفض زعيم من الخزرج أن يشترك في الدفاع عن قبيلته فانهزمت. وكانت المعركة عند حصن ليهود بني قريظة اسمه (بعاث) على مقربة ميلين من يثرب قبل هجرة النبي بخمس سنين. وكان اليهود يرددون أن في كتبهم نبيا منهم قد أطل زمانه وأنهم سيجعلون الأوس والخزرج أحاديث، مثلما حاق بعاد وإرم ذات العماد. وقتل في الحرب رئيس الأوس حضير (أبو أسيد)، وقتل زعيم الخزرج، كما فنى في المعركة كبراء القبيلتين ومن ثمة يسر على الباقين أن يسارعوا إلى الدخول في الإسلام، وهذا ما عنته أم المؤمنين عائشة حيث تقول "كان يوم بعاث يوما قدره الله لرسوله ﷺ، فقدم وقد افترق ملؤهم وقلت ثرواتم وجرحوا فقدمه الله في دخولهم الإسلام".

أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له وطهور. ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر".

وانصرفوا ومعهم مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم يعلمانهم شرائع الإسلام.

مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم:

كان مصعب من أنضر قريش شبابا، وأوضئها وجها، وأجملها بزة، فأضحى بالإسلام من أكثر الناس زهدا وتقشفا، وكان يهدى في يثرب بما اهتدى به أهل مكة وهو تلاوة القرآن عليهم وتحفيظهم إياه، ولذلك دعاه أهل المدينة (المقرئ)، وهو وأخوه أبو الروم مهاجران سابقان إلى الحبشة، شهدا هداية القرآن بمجرد تلاوته منذ أسمعه جعفر بن أبي طالب للنجاشي فآمن، وسيجعل رسول الله لمصعب لواء المسلمين في وقعة بدر، ويجعل الله من إكرامه أن يستشهد وهو يدافع عن شخص رسول الله في وقعة أحد.

ولقد بكى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إذ حضرته الوفاة في خلافة عثمان. وقال: "كان مصعب بن عمير خيرا مني، توفي ولم يترك ما يكفن به.. وبقيت حتى أصبت بها (الدنيا)، وأصابت مني وما أحسبني إلا سأحبس عن أصحابي بما فتح الله علي من ذلك". وجعل يبكي حتى فاضت نفسه بعد أن أوصى لكل أهل بدر، وبلغ سهم الواحد من زوجاته الأربعة ثمانين ألفا فيما بقي ميراثا.

نزل مصعب على أسعد بن زرارة أول من بايع يوم العقبة الأولى، فخرج معه يدعوان للإسلام في دار بني الأشهل (م الأوس) ورآهما سعد بن معاذ فأرسل أسيدا إلى مصعب لينتهيا عن قصدهما. ووقف أسيد عليهما متشتما. قال له مصعب: "أو تجلس فتسمع؟".. وقرأ عليه القرآن.. فتطهر ثم أسلم ورجع إلى سعد بن معاذ وأخبره بما كان منه. فنهض سعد ليكف مصعبا حتى إذا لقيه قال له مصعب: "أو تقعد فتسمع؟"... فقعد يسمع وأسلم. ورجع إلى قومه... ولم يبق بعد ذلك دار من دور "الأنصار" إلا دخلها الإسلام.

* * *

وما أحرى ما يقرئه مصعب وابن أم مكتوم للناس أن يكون مادة الدين، في مجتمع تشرئب نفوسه للاقتناع بدين لا ينادي كأحبار الدينين الأخيرين، بأن الإنسان ولد في الخطيئة، أو يزين الاعتدال أو الرهبنة، بل يقول الخالق سبحانه في سورة التين: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن

تقويم} ويقول في سورة الإسراء: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا}.

* * *

وفي السنة الثالثة تلاقى في العقبة مع رسول الله ثلاثة وسبعون معهم امرأتان (أم عمارة وأم منيع) فبايعوه (على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسير، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة).

قال واحد منهم يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال (يقصد اليهود) حبالا هم قاطعوها، فهل عسيت إن نحن قبلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله وقال: "بل الدم الدم والهدم الهدم" أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم، واسترسل يقول: "أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم".

وبهذا النص شملت البيعة السلم والحرب معا.

واختار لهم صلى الله عليه وسلم اثنى عشر نقيبا أولهم أسعد بن زرارة وثمانية من الخزرج وثلاثة من الأوس أولهم أسيد بن حضير.

ولما رجعوا لم يبق من العرب مشركون بالمدينة إلا قليلين سيسلمون فيصبح أهلها "أنصار الله ورسوله".

ومن توفيق الله أن يمهد مصعب وابن أم مكتوم بتعليم الدين بالقرآن وقد نزل أكثره بمكة، فيضعان أساسا راسخا يبني عليه الرسول فيما بعد.

الهجرة:

قال رسول الله بعد العقبة الأخيرة لصحبه: "قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب. فمن أراد الخروج فليخرج إليها".

فصاروا يخرجون إليها غير معالنين إلا عمر بن الخطاب تقلد سيفه ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بها سبعا، ثم صلى بالمقام ركعتين ووقف على الحلق حلقة حلقة وقال: شاهت الوجوه. من أراد أن يثكل أمه، أو يؤتم ولده، أو يرمل زوجته فليلقني خلف هذا الوادي..

ثم مضى لوجهه مهاجرا إلى المدينة في عشرين راكبا، فيهم أخوه زيد، وابنه عبد الله، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، وتتابع المسلمون إلا من حبسه قومه.

وأقام رسول الله بمكة ينتظر الإذن له بالهجرة، ولما استأذنه أبو بكر ليهاجر قال له: "لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا".

وجاءت ليلة الهجرة والمشركون يتوقعونها، فأتمر زعماء بني عبد شمس، وبني أسد، وبني مخزوم، وبني عبد الدار، وبني جمح، على قتله قبل أن يهاجر. وترصدوا له ليثب القتلة عليه إذا نام، ورأى الرصد فقال لعلي بن أبي طالب: "خذ بردي فنم فيه فإنه لا يصيبك شئ تكرهه"، وكلفه أن يرد للناس ودائعهم.

وخرج وهو يتلو قوله تعالى {يس. والقرآن الحكيم}.. إلى قوله {فأغشيناهم فهم لا يبصرون} وبهذه الآيات اخترق رصدهم.

وحثا في وجوههم التراب فلم يروه، وجعلوا يرقبون فراشه، فلما أصبح الصبح قام علي من الفراش ليتوضأ. ففوجئوا بغفلتهم. وانطلقوا يبحثون في الجبال وكان عليه السلام قد قصد إلى دار أبي بكر وخرجا إلى غار ثور فبقيا فيه أياما، وهو في أقصى الجنوب من مكة، وحام الباحثون حوله وصرفهم العنكبوت على بابه!

* * *

التفت رسول الله إلى مكة قبل أن يدخل الغار وقال: "أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إلي، ولولا أن المشركين أخرجوني ما خرجت"، فأنزل الله عليه {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم} محمد ١٣.

وبعد عشرات الأميال في الطريق زاده الله تثبيتا فنزل عليه قوله تعالى: {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد..} القصص ٨٥.

فهو على "موعد" من الله ليعيده إلى مكة.

وفي الطريق كذلك نزلت الآيات الأربعة من سورة الحج ٥٢ – ٥٥ تؤكد له أنه سيحفظه {وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم} إلى قوله تعالى {ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم}.

بهذا ثبتت السماء قدمه وعزمه في مراحل الهجرة المتعاقبة، وهي معركة – معان عظمى مظفرة بكل المقاييس خاضها رسول الله وصاحبه وحدهما، وانهزم فيها المشركون أجمعون.

جعل المشركون لمن جاء برسول الله أو بصاحبه حيا أو ميتا مائة بعير، واستشرف لها سراقة بن مالك بن جعشم إذ تراءى ركبهم على ساحل البحر، فركض فرسه وراءهما فساخت رجلاها ثم نهضت فساختا. قال فيما بعد: فعرفت أن الله قد منعهما مني فناديتهما بالأمان. فقال رسول الله لأبي بكر: "قل له ماذا تريد منا"؟ فقلت: "إن قومكما جعلوا فيكما الدية". فلم يسألاني شيئا إلا أن قال صلى الله عليه وسلم (أخف عنا)، فسألته أن يكتب لي كتاب موادعة. قال: "اكتب له يا أبا بكر" أو قال: "فأمر عامر بن فهيرة[٢٣]" فكتب له.

وقيل إن رسول الله وعده تاج كسرى.

وسيقدم سراقة للنبي الكتاب بعد فتح مكة فيقول له صلى الله عليه وسلم "هذا يوم وفاء وبر"، وسيطلب تاج كسرى إذ استولى عليه المسلمون في خلافة عمر وكان ثمة سواران طويلان. وسراقة طويل فنظروا من رجل طويل يلبسونه إياه فما كان أطول من سراقة. وفي الطريق مروا بخباء أم معبد الخزاعية في قديد وليس لديها ما يتزودونه، فوجدوا شاة، قالت: "إنها لم يقربها فحل لتدر اللبن"، فحلبها فدرت، وشربوا وشربت أم معبد. ثم قال: (ساقي القوم آخرهم شربا) وانطلقوا.

وبلغ الركب قباء على مشارف المدينة فيما يوافق ٢٠ من سبتمبر سنة ٦٢٢ للميلاد، وهو ضحى الإثنين لاثنى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول وهو مبدأ التاريخ الإسلامي. به أرخ رسول الله كتبه كما صنع ذلك في كتاب لنصارى نجران، وفي يوم صلح الحديبية. إنما قدم عمر التاريخ الهجري شهرين وأياما ليوافق مبدأ العام في شهر المحرم فهذا تاريخ العالم الجديد. عالم الإسلام.

(٢٣) أحد المسلمين الذين اشتراهم أبو بكر ليمنع عنهم عذاب المشركين، فكان يرعى له غنما ثم يجئ بها في المساء عند الغار ليأخذ المهاجران من لبنها حاجتهما ثم يدخلان إلى الغار. ثم تجئ أسماء بنت أبي بكر بالطعام ثم يجئ عبد الله بن أبي بكر بالأخبار. ثم تجئ غنم عامر بن فهيرة فتعفي على الآثار. ولما بدأت المسيرة الخالدة إلى المدينة أردفه أبو بكر خلفه – وهو بدري ومن شهداء بئر معونة.

* * *

والتاريخ طريق طويل،خطاه الأولى جبارة وإن كانت قصيرة، فهي خطوات "أمهات" تجري في آثارها أمثالها في كل صوب أو ضرب، ويستحضرها الخلف على مدار القرون كلما عزموا عزمة في سبيل الدنيا أو الدين.

لم تكن السنوات الأخيرة بمكة قاحلة كالصحراوات أو الفراغات في الزمان والمكان، أو عمر الإنسان،بل كانت تجن ما يصنعه الله للإسلام من بيعات أهل يثرب ومن الهجرة إلى حيث تقام دولة الإسلام.

في سنوات مكة كلها كان الإسلام ينتشر ببطء، ولكنه يخترق إلى القلوب ويعمق ليفهمه "المهاجرون" حق الفهم فيكونوا مع "الأنصار" الفاهمين عنهم عمد الدولة وعناصر انتصاراتها في حياة النبي ومن بعده.

ومن المعجزة إتمام كثرة المسلمين الهجرة إلى يثرب على أعين المشركين وهم كالمسحورين، يرون الصحابة يتتابعون زرافات ووحدانا إلى يثرب حتى تأخذهم هجرة النبي وأصحابه أخذ الفجاءة بزلزال كأنهم عمي لم يكونوا يرونه من بوادره إلى أواخرهّ! معلنة غير خافية، تتعالى دلالاتها وأصواتها بأن المسلمين ممسكون بعنق مكة لا محالة إذا استولوا على يثرب.

ولئن كان رسول الله كالكوكب الذي ألقى عليه الله نوره، فسيره في فلك مرسوم له أن يشغله، فالكاتب لا يدع ما مضى من أضواء بمكة دون أن تلفته أمور:

يبدهك من الأمور الشخصية – فيما عدا خصوصيات رسول الله التي سنتحدث عنها في (الباب الرابع) – أثر أم المؤمنين خديجة الجليل في تأييد رسول الله وأصحابه.

وإذا كان من الورع ألا تجرى المقارنات بين الصحابة فإن رسول الإسلام يسجل لها اختصاصها "بالحضور" المؤثر في الأيام الأولى للوحي والمشاركة التي تفرغ من جرائها الرسول للرسالة وتشميره في أمرها، وهذا الذي اختص الله به خديجة، هو الذي أطلق به لسان رسوله لعائشة عن خديجة "والله ما أبدلني الله خيرا منها" وشفع الحكم بأسبابه: "آمنت بي إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذب الناس. وواستني في مالها إذ حرمني الناس. ورزقني منها الولد إذ حرمني أولاد النساء".

وعليها يتعلم العالم إسهام الزوجة في عمل زوجها بما يسرها الله له، وإن كان رسولا.. والمسلمون لا ينسون أنها بقيت بعض الزمان نصف أهل الإسلام، والنصف الثاني رسوله. ومن تكريمها عند الله أمر النبي عن طريق جبريل أن يقرأ عليها من ربها السلام، أما عائشة فأبلغها رسول الله سلام جبريل وأجابت "وعليه السلام ورحمة الله وبركاته".

ومن وفائها بواجباتها أعظم الوفاء قضى الله ألا تشركها سواها في حياتها الطويلة معه. ولعل في هذا القضاء إرشادا للمسلمين بأن يقتصر الرجل على الزوجة الواحدة،المرضية الراضية. وقد يصلح في تأييد هذا النظر أنه صلى الله عليه وسلم إذ بنى بسودة بعد موت خديجة أبقاها وحدها أيضا معه سنوات وهي في حياتها معه مثال للتضحيات – وهو لم يدخل بعائشة إلا بعد أن عبر أوائل الخمسين إلى الستين. وقد يرى راء مما مضى أن زواجه من خديجة هو الزواج الذي دعت إليه الدواعي العادية للزواج.

ولعل هذه الملاحظة تقدم إلينا من كمالات رسول الله وكفايات رفيقة الحياة سنة عدم تعدد الزوجية إلا لحاجة، وبشرطها وهو العدل إن كان مستطاعا.

وأمر آخر في حياته الشخصية صلى الله عليه وسلم هو رقته للبنات إذ يرزقهن، وإشراق وجهه في استقبالهن وسنرى، بعد، حبه لهن الذي لا يعدله حب. وإحسانه اختيار أصهاره، فليس في الدنيا مثل عثمان صهرا. فنساء قريش كن يدللن أطفالهن بقولهن: (أحبك والرحمن حب قريش عثمان) بل يقول عنه رسول الله حين زوجه أم كلثوم بعد موت رقية (لو كن عشرا لزوجتهن عثمان).

ومن خير لزينب من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع؟ وسيرد علينا بعض فضائله. أما علي فهو علي/ رباه وخصه بالمؤاخاة، وندبه للعظائم، واختاره لفاطمة لتكون من نسلهما عترته الطاهرة.

ويبدهك من الناحية العامة أنا لرسالة كانت دائما في ارتفاع يخدمها الصد عنها فتندفع كالسيل يتجاوز السدود، وكلما حسب المشركون أنهم نالوا منها نيلا خبب الله حسبانهم بعطاء ضخم. فالهجرة للحبشة كانت إعلانا للدين وترحيبا به وبرسوله على لسان زعيم النصرانية في أفريقية إن لم يكن أسلم.وتعاهد المشركين على المقاطعة أدخل إلى شعب أبي طالب قوما يصنعهم الله لرسوله على عينه فتألفت منهم نواة صلبة تخرج منها المثل العليا للبطولات العالية، ليبرحوا الشعب، وفي كل بعض "شئ" شهدوه منه، وليكونوا كمها جرى الحبشة صدقا عند اللقاء صبرا في الشدائد.. وإنها لمقبلة.

ولما فقد خديجة وأبا طالب، وشكا إلى الله صدود ثقيف. وحسب المشركون أن نجمه في أفول، أسرى الله سبحانه به، وأطلق قدميه خارج مكة إلى العالم.

وأمر آخر يتبادر إلى الخاطر إذ هاجر، ولا مال معه، فهو عليم بأن الله (هو الغني الحميد)، وأن جلائل الأعمال أحوج إلى عزائم الرجال. وأن القوة التي لا تقف أمامها القوى هي قوة التجرد: دعا إلى الله بلا مال، وترك مكة بلا مال، وسيترك الدنيا بلا مال، ويغني الله به العالم.

* * *

والذي يستوقف الفكر من الناحية الدينية أو الإلهية أمور عظام تلفت أنظار المسلمين إلى طبيعية الإسلام ليفطنوا إلى وجوه صلاحهم، تتبدى في نزول أكثر القرآن بمكة والمسلمون قلة بلغت الذروة بما أخذت به من القرآن وهدي الرسول، ليعض المسلم على دينه بنواجذه فيبلغ درجة الكمال بأخلاق القرآن وهدي الرسول، فيقبل على التضحيات مؤمنا بأن الله ناظر إليها، ومثيب عليها كما وعد، فلا يفزعه الفساد. وليس التاريخ يوما وليلة فإن من بعدهما غدا نعمل له، والناس لا تصدق الناصحين بكثرة ما يتكلمون وإنما الإيمان قول وعمل – وكان رسول الله أكثر قومه عملا.

وكان المهاجرون بما أفاء الله عليهم من فضل خلقاء. ونجاح الدعوة قام به رجال أكفاء لما كلفهم رسول الله به، خلفوا للبشرية مثلها العالي لتتجه تلقاءه. فهذا دين الله يفرض نفسه بنفسه وبعمل النبي وقوله وبعمل الناس به.

وينتقل هذا التفكير إلى درجة أخرى إذ يستصحب كل مسلم السر الكبير في قوة الرسول واقتداره في أي حال كان. وهو اعتماده على الله وحده. فطريقه إلى الله مفتوح ذهابا وجيئة، بالدعاء والاستجابة، ويقينه بذلك هو الذي جعله يقول يوم ثقيف "إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي".

وهو أوضح وأقوى إلى أبعد حد فيما أنزله الله عليه بالسور الأولى في النزول إلى البشر وكثير غيرها من القرآن المكي يقول الله جل جلاله في سورة الصافات ١٧١ – ١٧٢ – ١٧٣ {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين "إنهم لهم المنصورون" وإن جندنا لهم الغالبون}.

ويقول في سورة إبراهيم ٤٧ {فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله، إن الله عزيز ذو انتقام} وفي أذن الرسول وذهنه قوله تعالى {واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم}.

وما هذه إلا أمثال للكثير غيرها من عهود بين الله ورسوله، وكل هذه العهود التي قطعتها السماء توضح لنا يقين الرسول بأن الله معه، فلا عجب أن يكون أشجع البشر وأحقهم بالنصر. وصدق الله {الله أعلم حيث يجعل رسالته}.

ولا غرو إذا كان اليقين الدائم بالنصر يتحقق به النصر في "كل" موقف، ليكون دليلا على أن الله يؤيد رسالته الخاتمة على يد هذا الرسول الخاتم.

وترتفع بشرية الرسول درجات قدر ما تقدمه رسالته وعظمة أدائه لها من دلالات على وجود الخالق وقدرته جل ثناؤه وتعالت أسماؤه، لنستصحب دائما "تضافر" الرسالة "وعمل" الرسول "وتحقيق الوعود" الذي لا يتخلف.

obeikandl.com